بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية وآدابها

فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد

إعداد

فيصل حسين طحيمر العلي

إشراف

أ. د. محمد محمود قاسم نوفل

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية

نابلس - فلسطين

1422هـ - 2001 م

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

نموذج تقرير لجنة مناقشة الاطروحة (دع-٣جـ)

(برنامج الماجستير)

اسم الطالب : فيصل حسين طحيمر العلي .... رقم الطالب ٩٩٥٠٤٩٤

كلية : الدراسات العليا .... قسم : اللغة العربية ....

عنوان الاطروحة : فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد ....

....

....

نتيجة المناقشة : ضع دائرة حول احدى النتائج التالية :

أ- ناجح بدون اجراء تعديلات

ب- راسب

ج- ناجح مع اجراء التعديلات التالية : (يمكن ارفاق ورقة منفصلة بالتعديلات)

....

....

....

....

توقيع اعضاء اللجنة :

الاسم: أ. د. محمد حاكم نوفل الاسم: د. تيسير عودة الاسم: د. جابر عودة الاسم: ....

التوقيع : [signature] التوقيع [signature] التوقيع : [signature] التوقيع : ....

التاريخ : ١٠/٦/٢٠٠١ ....

للاستعمال الرسمي :

....

....

....

ملاحظات : ١. اذا نجح الطالب في المناقشة بدون اجراء التعديلات، عليه تسليم عدد (١٦) نسخة من الأطروحة مع هذا التقرير .

٢. اذا كان هناك تعديلات مطلوبة على الاطروحة، تعرض النسخة المعدلة مرة اخرى على لجنة المناقشة لاتخاذ القرار النهائي (ناجح أو راسب)، وذلك على النموذج الخاص الصادر عن عمادة كلية الدراسات العليا (استمارة رقم دع-٣/د) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[1]

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[2]

﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[3]

﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[4]

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) سورة يوسف، آية: ٢.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٣.

الإهداء

إلى والديَّ اللّذيْنِ أدعو لهما بالرحمة والغفران ..

إلى زوجتي الوفية ..

إلى أبنائي وبناتي الذين أرجو من الله

لهم حسن التربية والتعليم ..

إلى مَن أحب اللغة العربية وآدابها ..

إلى كل طالبِ علمٍ اتخذ الله ولياً، والرسول

– صلى الله عليه وسلم – قائداً، و الإسلام ديناً،

و القرآن دستوراً ..

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي هدانا لدينه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي أكمل بالإسلام رسالاته السماوية، فجعله النبع الصافي، والمنهل العذب، والمورد الخالد، لا يظمأ من ارتوى من معينه، فهو نبع فيّاض، يفيض بالرحمة والغفران، لمن امتلأ قلبه بالعلم والإيمان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، أنار قلوب المؤمنين بنور المشكاة الخالد، الذي يضيء القلوب بنوره العلوي السرمدي، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أفضل معلم للبشرية، وخير منقذ للإنسانية، له أشرقت له الظلمات، و عمّ به الخير والبركات، تعلم الناس من رسالته أصول دينهم، ومن تعاليمه شادوا بنيان الحضارة والعمران.

أما بعد:

فبعد طول تمعن ودراسة للنثر في أدبنا العربي عبر عصوره المختلفة، وبعد أن نظرت في مراحله، وتعرفت على فنونه، وقرأت لأعلامه، وتأملت في رواده، وجدت فناً لم ينل حظه من الدراسة كغيره من فنون الأدب، وعثرت على أعلام لم يُسلّط الضوء عليهم كما يجب من عناية واهتمام، أما الفن فهو من الترسل، وأما الأعلام فقد لفت نظري عَلَمان من أعلام الترسل هما: عبد الحميد الكاتب وابن العميد، هذان الرائدان سطر التاريخ لهما مجداً، وأفرد لهما الأدب ذكراً، وأعلى لهما الأدباء شأناً، فكان عبد الحميد خير بداية للترسل،

وبات ابن العميد مسك النهاية، وتحدث المتحدثون من الأدباء والدارسين عبر العصور الأدبية عن هذين العلمين، دون أن يجمع بينهما مع ترسلهما في دراسة واحدة، إلا ما ندر من إشارات خفيفة كمقولة الثعالبي التي تقول: "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"[1]، وهذه العبارة تناقلها الأدباء والباحثون وكتاب التاريخ الأدبي، حتى عصرنا الحاضر مع تعليقات متفاوتة.

وحاولت جهدي منذ سنوات ــ وبدون جدوى ــ أن أعثر على دراسة حقيقية تجمع بين ترسل هذين الأديبين، وتتحدث عن الجوانب الفنية لترسلهما، هذان الكاتبان اللذان طبق صيتهما الآفاق، وعلا ذكرهما في جنبات الأرض، مما استهواني هذا الذكر، وشغفني هذا الصيت، وشجعني على التفكير بجدية تامة للكتابة عن فن الترسل عند هذين الإمامين المترسلين، إلى أن هيأ الله عز وجل لي الأمور، وبعد طول انتظار، حانت لي الفرصة المناسبة الآن لدراسة فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد.

فلذلك حاولت قدر استطاعتي أن أحقق الأهداف التي رسمتها لهذه الدراسة، والآمال المتوقعة منها، والتي أتوقع أن تبرز أمورا جديدة في فن الترسل وتاريخه، خاصة عند عبد الحميد وابن العميد.

فهذه الدراسة ستتناول الجوانب المهمة لشخصيهما والترسل عندهما، من خلال عقد مقارنة موضوعية لفن الترسل لهما، مع بيان كيفية تفوق كل منهما في عصره ومجتمعه، ولم وصل كل منهما إلى العلياء في الجاه والكتابة؟ وما ميزات فن الترسل عند عبد الحميد

---

(١) الثعالبي، عبد الملك، يتيمة الدهر، شرح وتحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ط ١، ١٩٨٣م، ص: ١٨٣.

الذي قيل: إن الكتابة بدئت به؟ وعند ابن العميد الذي قيل: إن الكتابة اختتمت بترسله؟ كما قال الثعالبي، وما سرّ هذه المقولة؟ وهل هذه العبارة تصور الحقيقة للمركز الفني والشخصية الأدبية لهما؟ وهل هذان الفارسان هما فارسا حلبة فن الترسل في الأدب العربي في عصر الخلافة الأموية، وعصر الخلافة العباسية؟.

واعتقد أنني بعد طول البحث والتنقيب في عشرات المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية قديمها وحديثها، سأتمكن من الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، وسأعمل على جمع شتات المعلومات عن فن الترسل عند هذين الكاتبين، وسأكوّن من خلالها صلب هذه الدراسة المتواضعة، والتي قسّمتها إلى أربعة فصول، كل فصل يشتمل على عدة موضوعات، حيث من هذه الفصول وموضوعاتها تتشكل البنية العامة لهذه الرسالة.

ففي **الفصل الأول**: تحدثت عن معنى الترسل لغة واصطلاحاً، ثم تتبعت تاريخ الترسل وفق مراحل مختلفة رتبتها كما يلي:

مرحلة العصر الجاهلي، المرحلة النبوية، مرحلة الخلفاء الراشدين، مرحلة الخلافة الأموية، مرحلة الخلافة العباسية.

وفي الفصل الثاني: تحدثت عن عبد الحميد الكاتب: نَسَبه، حياته، أخلاقه، ثقافته، ترسله، نماذج لترسله مع بيان مدى الالتزام والتطبيق بميزات ترسله في رسائله.

وتحت موضوعات الفصل الثاني نفسه، وضعت الفصل الثالث عن ابن العميد.

أما الفصل الرابع: فكان دراسة عامة لفن الترسل عند عبد الحميد وابن العميد، ومحاولة بيان الصفات، التي تجمع أو تفرق بين هذين الأديبين الكاتبين، وبعدها خلصت إلى نتائج لهذه الدراسة، ثم أنهيت الرسالة بخلاصة عامة.

وتحت ظلال هذه الرسالة، يسعدني أن أسجل بأحرف من نور، أن هذه الرسالة، وعبر مراحلها المختلفة، تمت تحت رعاية واهتمام الشيخ الجليل والعالِم الأديب، والإمام القدير، فضيلة الأستاذ الدكتور (**محمد محمود قاسم نوفل**) حفظه الله وأدامه، وأمدّ في عمره عَلَماً من أعلام الأدب، وذروة من ذرى العلم والمجد، وقمة من قمم الهدى والأخلاق، من علمه أخذت، وعلى يديه تعلمت، ولإرشاداته عملت، حتى ظهرت هذه الرسالة على هذا النسق والترتيب، وعلى تلك الهيئة والتنظيم.

وهذا كله من توفيق الله عز وجل، وحسن هدايته جل وعلا، فإن وجد تمام وكمال في هذه الرسالة فهو من توفيق الله عز وجل، وهو صاحب الجلال والكمال، وإن وجد نقص فهو مني، أسأل الله العفو والغفران، وأن يهيئ للباحثين والدارسين من بعد، تكملة مشوار هذه الرسالة موضوعاً ونهجاً.

وإنه ليسرني هنا أن أسجل شكري وتقديري للجنة مناقشة هذه الرسالة والمكونة من المشرف ورئيس اللجنة الأستاذ الدكتور (محمد محمود قاسم نوفل)، و مشاركة كل من الدكتور الفاضل (خليل عوده)، والدكتور الكريم (تيسير عوده)، الذين بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل مناقشة هذه الرسالة، وفي تقديم الملحوظات القيمة والآراء السديدة، فجزاهم الله خيراً. **والله هو الهادي إلى سواء السبيل وهو ولي التوفيق.**

الفصل الأول

ـل لغة واصطلاحاً

ـل نشأة وتطوراً

ـل الترسل حتى عصر ابن العميد :

مرحلة العصر الجاهلي

المرحلة النبوية

مرحلة الخلفاء الراشدين

مرحلة العصر الأموي

مرحلة العصر العباسي

أنواع الرسائل: **الرسائل الديوانية (الرسمية)**

الرسائل الإخوانية (الشخصية)

الرسائل الأدبية

الترسـل لغـةً واصطلاحـاً

الترسل لغةً:

قبل أن أقف على المعنى الاصطلاحي للترسل، لا بد من التعرف على المعنى اللغوي لجذر الترسل، فالترسل من الكلمة **رسل**:

فالراء والسين واللام (ر س ل) جذر يتفرع منه ألفاظ يتبعها معان ودلالات، وعند الوقوف على معاجم مختلفة تبين لي ما يلي:

رَسَـلَ: الرَّسَل: القطيع من كل شيء، والجمع أرسال، والرّسَل: الإبل، والرَّسَل: قطيع بعد قطيع، وأرسلوا إبلهم إلى الماء أرسالاً أي قطعاً. وإذا أورد الرجل إبله منقطعة قيل أوردها أرسالاً.

والترسُّل والرِّسلة: الرفقة والتؤَدة، ويقال: افعل كذا وكذا على رِسْلِك، أي اتئد فيه.

والترَسُّل كالرِّسْل، والترسل في القراءة والترسيل واحد، قيل: وهو التحقيق بلا عجلة، وقيل بعضه على إثر بعض، وترسَّل في قراءته إتأد فيها، يقال: ترسل الرجل في كلامه ومشيه، إذا لم يعجل، وهو والترسُّل سواء.

والرِّسْل: اللبن والخصب والسعة، والرَّسل: الذي فيه لين واسترخاء.

وشعر رَسْل: مسترسل. والمرسال: الناقة السهلة السير.

والترسل من الرِّسل في الأمور والمنطق كالتمهل والتوقر والتثبت.

والرسول: بمعنى الرسالة، ومعناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قولهم: جاءت الإبل رَسَلاً أي متتابعة.

ونثر مرسل: لا يتقيد بسجع، وترسل الكاتب: أتى بكلامه

مرسلاً من غير سجع.

وأرسل الكلام: أطلقه من غير تقييد، وراسله في عمله: تابعه فيه[1].

وعند البحث في معجم مقاييس اللغة[2] لابن فارس عن هذا الجذر وجدت الآتي:

رَسَلَ: الراء والسين واللام.

أصل واحد مطرد منقاس يدل على الانبعاث والامتداد.

الرَّسْل: السير السهل.

والرَّسَل: ما أرسل من الغنم إلى الرعي، والرِّسْل: اللبن، وقياسه ما ذكرناه؛ لأنه يترسل من الضَّرع، ويقال: أَرْسَل القوم: إذا كان لهم رِسْل وهو اللبن.

ورسيل الرجل: الذي يقف معه في نضال أو غيره، كأنه سمي بذلك لأن إرساله سهمه يكون مع إرسال الآخر لسهمه.

والرِّسْل: الرخاء، يقول: ينيل منها في رخائه وشدته.

واسترسلت إلى الشيء: إذا انبعثت نفسك إليه أنِسْت.

والمرسلات: الرياح.

---

(١)المصري، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار لسان العرب، مجلد ١.

(٢) مصطفى، إبراهيم (وزملاؤه)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، - جزء ١،.

- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي،

- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة ١٠، سنة ١٩٩١م، (المؤلف لجنة من مجمع اللغة العربية).

(٢) زكريا، أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، جزء٢، .

الترسل اصطلاحاً:

عندما حاولت أن أوفق بين المعاني والدلالات التي خرجت من جـذر (رَسَلَ)، والتي وردت في معاجم مختلفة، تبين لي أنها تكاد تتفق في معظـم المعاني، أو تتقارب، وهذا ما أكده الأصل الذي اخذ من معجـم مقـاييس اللغة، والذي يتفق مع المعاني التي تجتمع على دلالة واحدة وهي: الانبعـاث والانبساط والامتداد والاستمرار، حيث شيء بعد شيء في رفق وسـهولة وتؤدة ولين وتتابع وتكرار (قطيع بعد قطيع).

ومن خلال ما سبق أخلص إلى القول: إن الترسـل مصطلـح أدبي، يقوم على ترجمة ما يدور في العقل من كلام حول مواضيع معينة على شـكل رسائل، قد تكون رسمية، أو إخوانية، أو أدبية، تصدر من كاتب يحـاول أن يبسط من خلالها ما يريد على شكل أفكار متتابعة، يترجمها لكلمات يؤلـف بينها لتكون جملاً وفقرات بأسلوب فيه تؤدة وسهولة ورفق من المرسِـل إلى المرسَل إليه.

ومنهم من يقول: الترسل من المصطلحات الأدبية المولدة، ويراد بـه كتابة الرسائل[1].

ومنهم من يعرفه: "هو فن قائم على خطاب يوجهـه شـخص إلى شخص آخر، أو يوجهه مقام رسمي إلى مقام رسمي آخر"[2].

ويعرفه آخر: ما يكتبه المرء إلى صديقه أو أهلـه وتكـون موجـزة محدودة الموضوع سهلة الأسلوب، خالية من التأنق اللفظي غالباً[3].

(١) مهنا، علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط ١، ١٩٨١م، ص: ٢٢٢.

(٢) غالب، حسين، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧١م، ص: ١٨١.

(٣) التونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلميـة،بـيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٢، ص: ٤٧٨.

وقد يطلق على كتابة الإنشاء صناعة الترسل، تسمية للشيء بأعم أجزائه، إذ الترسل والمكاتبات أعظم من كتابة الإنشاء، وأعمها من حيث إنه لا يستغني عنها ملك ولا سوقة[١].

وقد يعنى الترسل إنشاء المراسلات على الخصوص، لأنهم يريدون به معرفة أحوال الكاتب والمكتوب إليه، من حيث الأدب والمصطلحات الخاصة الملائمة لكل طائفة، وهو الذي يتغير مع الأعصر، ويشتمل على المراسلات والخطب ومقدمات الكتب لأن أساليبها متشابهة[٢].

ويعرف الطالب المراسلة في كتابه (الإنشاء العربي الميسر) فيقول: "هي مخاطبة الغائب بلسان القلم، ويراعي فيها أحوال الكاتب (المرسِل)، وثقافته وسلامة لغته، وأحوال المكتوب إليه وثقافته (المرسَل إليه)، وسلامة لغته، ونوع الرسالة والهدف"[٣].

---

(١) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ص: ٣.

(٢) زيدان، جرجي، كتاب تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، ١٩٣٠م، ج ٢، ص: ٣٤.

(٣) العلي، فيصل حسين طحيمر، الإنشاء العربي الميسر، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، ط ٢، ١٩٩٤م.

الترسُّـــل نشــأةً وتطـــوراً

إن الحديث عن أولية الترسل ومراحل تطوره، وكيـــف وصـــل إلى مكانة سامقة بين فنون النثر العربي، يتطلب مني الوقوف على مراحل النشـــأة والتطور، والتي أستطيع من خلالها أن أكوّن فكرة واضحة عن بنائية الترسل، وكيف انتهى إلى المرحلة المرموقة، والدرجة الرفيعة، في مراحـــل الترســـل الزاهية، وهذه المراحل هي:

* **مرحلـــة العصـــر الجـــاهلي.**
* **المرحلـــــــة النبويـــــــة.**
* **مرحلة الخلفـــاء الراشـــدين.**
* **مرحلـــة العصـــر الأمـــوي.**
* **مرحلـــة العصـــر العباســـي.**

إن هذه المراحل المختلفة والمتتابعة، تشكل مواقف مهمة في تـــاريخ الأدب العربي والنثر العربي، وسأركز الحديث عن الجوانب الفنية للترســـل، مبيناً كيفية تشكل الترسل عبر عصور الأدب العربي، إلى أن وصل إلى المرحلة التي استقر عليها، ونضج فيها.

١ - مرحلة العصر الجاهلي:

النثر قسيم الشعر، لكن الاهتمام بالشعر كان أكثر؛ لسهولة حفظه وروايته، ولأنه أكثر تعبيراً عن مواقف القبيلة، وربما كانت الخطابة تستطيع أن تقف إلى جانب الشعر، لكنها لا تطاوله، فميادين الشعر كثيرة، وأبوابها رحبة، أما فنون النثر الأخرى، فتكاد تنحصر في بعض الوصايا والحكم والأمثال والمعاملات، وانزوت الكتابة لتوثيق مثل هذه المعاملات، فلذلك ظلت "الكتابة محصورة في حدود المطالب اليومية، وربما في أضيق نطاق ممكن من تلك المطالب"(١)، وقد يكون ذلك لصعوبة توافر مواد الكتابة، أو لاعتداد العربي القديم بذاكرته، وتحرجه من اللجوء للكتابة، حيث إن "فكر البدوي القديم الذي يعتبر الكتابة شكاً في ذاكرته التي طال اعتداده بها"(٢)، كان ذلك يؤثر على ممارسة الكتابة أو تعلّمها.

وللدارسين إزاء أسبقية النثر الفني للشعر موقفان:

الموقف الأول(٣): يرى أن الكلام المرسل المعتاد بمرور الزمن، تعرض لمن يصفي شوائبه على يد الموهوبين، ليصل إلى مرحلة السجع، وهو أقدم القوالب الفنية المنمقة، وقد كان العرافون والكهنة يصوغون فيه كلامهم وأقوالهم، وهو لا ينتج عفو الخاطر، بل لا بد من اختيار الكلمات وإعمال الفكر، وبعد أن اجتمع الإيقاع مع السجع تطور إلى بحر الرجز، ومن الرجز نشأ بناء أبحر العروض المختلفة، ومن هذا نرى أن الشعر جاء مرحلة فنية متطورة عن مرحلتين هما السجع والرجز.

---

(١) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دار قباء للطباعة والنشر، ص: ٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص: ٢٦.

(٣) ينظر: المقداد، محمود، أيهما أسبق إلى الظهور الشعر أم النثر الفني، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، عدد: ٣٩ / ٤٠، ١٩٩٠م، ص: ١٦٤ — ١٧٣.

الموقف الثاني: يرى أصحاب هذا الرأي أن الشعر يقتضي تفجر المشاعر مع خيال واسع، والخطابة تستدعي إقناعاً وتوجيهاً في موقف خطير صعب، والكتابة نتيجة نضج عقلي وتسلسل منطقي، فمن الطبيعي "أن يتدرج الأدب العربي زمنياً بنشأة الشعر، فالخطابة، فالكتابة".[1]

وأرد على ما ذكر بما يأتي: إنَّ النثر الفني المنمق ليس أقل تعبيراً في كثير من الأحوال عن أدق مشاعر الإنسان وعواطفه القلبية، وليس هناك شيء آخر يعبّر عنه بالشعر، إلا وللنثر إمكانية التعبير عن مثله، وليس هناك من صورة في الشعر، إلا ويكون النثر أقدر على تصويرها ووصفها في كثير من الأحايين؛ لأن الشعر لغة معقدة ومقيدة، أما النثر فلغته مبسطة وأكثر حيوية، وأقدر على الحركة والتعبير من الشعر[2]، ويعني ذلك أن النثر يخلو من قيود الوزن والقافية التي تقيد الشعر، أما النثر الفني فله موقف آخر قال عنه الدكتور طه حسين: "العرب في جاهليتهم لم يكتبوا نثراً فنياً، وعرفوا ألواناً من البلاغة في محاوراتهم وخصوماتهم"[3]، ومعظم الباحثين يرون أن العصر الجاهلي لم يعرف من الكتابة غير ما دوّن من بعض المعاهدات والأحلاف والعقود التجارية، "أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر، ولم تصل إلينا منه أية شواهد كتابية فنية"[4]، إلا في فترة زمنية متأخرة في العصر العباسي وما بعده.

وأنا أرى أن بذور النثر الفني كانت موجودة، حيث "كان السجع موجوداً في عبارات الكهان الجاهليين وبعض خطبائهم"[5]، وربما كانت في طور الإنبات، فهناك من يقول: إن فن الترسل في الأدب العربي الجاهلي اتصفت رسائله بالإيجاز والبساطة في التعبير، دون صنعة لفظية، وكان عبارة

---

(١) ينظر: شلق، علي، نقاط التطور في الأدب العربي، دار القلم، ط ١، ١٩٧٥م، ص: ٣٦٨.

(٢) ينظر: المقداد، محمود، أيهما اسبق إلى الظهور الشعر أم النثر الفني، مجلة التراث العربي، ص: ١٦٥.

(٣) حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٦م، ج ٢، ص: ٤٠.

(٤) مهنا، علي جميل، الأدب في ظلال الخلافة العباسية، ط ١، ١٩٨١م، ص: ٢٢٣.

(٥) الدقاق، عمر، ملامح النثر العباسي، دار الشرق العربي، بيروت، ص: ٣٩٣.

عن رسائل وتوصيات وحكم وأمثال كرسالة المنذر الأكبر إلى كسرى أنو شروان، ورسالة عبد العزى بن قيس الكلبي إلى قومه.(١)

لقد كانوا في نثرهم الفني هذا – وإن بدا قليلاً نادراً – لا يحفلون بانتقاء الألفاظ والتعمق في المعاني وترتيبها، ولا يولعون بالتأنق في صوغ العبارات، ويميلون إلى الإيجاز في الألفاظ، وتعمد إلى استيفاء المعنى من غير إخلال(٢)، وهناك من يعتبر أن الرسالة كانت قريبة إلى حد ما بالخطبة، من غير تنميق أو التزام أسلوب خاص؛ "لأن العرب عامة كانوا أقدر على الخطابة منهم على الكتابة"(٣).

وعند إمعان النظر في الآراء المطروحة سابقاً، يتبين أن أولية النثر الفني العربي كانت موجودة في العصر الجاهلي دون أن تسمى بمسميات العصور اللاحقة، لكنها لا ترقى إلى درجة النثر الفني الناضج، ولا تصل إلى مرحلة ظهور الجوانب الفنية للترسل، لكن البدايات الأولى كانت موجودة، ومنها انطلق الناثرون الفنيون في العصور اللاحقة إلى تأصيل النثر الفني وما سيمثله من ترسل وغيره، ومما يؤيد ذلك أن الكتابة كانت معروفة على نحو تخدم مصالحهم منذ العصر الجاهلي، وكان ممن عرف الكتابة من أهل البادية "أكثم بن صيفي حكيم تميم وخطيبها، وابن أخيه حنظلة كاتب الرسول صلى الله عليه وسلم، والمرقش الأكبر، ولبيد بن ربيعة"(٤)، وغيرهم، وكذلك فإنه "من الثابت أن العرب في جاهليتهم استعملوا الرسائل بينهم للتعبير عن بعض شؤونهم الحياتية".(٥)

---

(١) سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م، ص: ٢٩.

(٢) الإسكندري، الشيخ أحمد، الوسيط في الأدب العربي، مطبعة المعارف، ص: ١٣٦.

(٣) عمر، فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م، ج ١، ص: ٣٧٤.

(٤) عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص، مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٩٦م، ص: ١٧٣.

(٥) المرجع السابق، ص: ١٧٤.

٣- المرحلة النبوية:

مع إطلالة فجر النبوة، أخذت شمس الدعوة تنسج من خيوطها أفكاراً نيرة، تنبعث من عقول جيل الصحابة الكرام، ملؤها الإيمان، والعقيدة السمحة، التي استطاع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم من خلالها أن يغير من نسيج العقل الجاهلي، ليظهر بمظهر الحضارة الإسلامية الوليدة، وبما أن الإسلام للناس كافة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما استقر به المقام في المدينة المنورة، عاصمة الدولة الناشئة، أخذ يرسل برسائل لملوك وحكام أكبر الدول المحيطة، بل والموجودة في عصره عليه السلام، إضافة إلى أمراء العرب يدعوهم إلى الإسلام.

وعند النظر في الرسائل النبوية المرسلة إلى كل من: هرقل ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس عظيم القبط في مصر، والنجاشي ملك الحبشة، ووائل بن حجر في حضرموت، **نتبين من خلال هذه الرسائل ما يلي:**[(١)]

١- تتميز الرسائل الموجهة لزعماء أهل الكتاب، بأن جملها أرق؛ لما تحمله من كلمات تدل على ما يتميز به أهل الديانات السماوية، ففي رسالته إلى هرقل يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ...".[(٢)]

أما رسالته عليه السلام إلى كسرى، ففيها تذكير بالعقيدة وإنذار وتحذير، حيث يقول فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول

---

(١) خليف، د. مي يوسف، النثر العربي بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دار قباء للطباعة والنشر، ص: ٢٩ – ٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٣٢.

– البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة، صحيح البخاري، دار الفكر، ط ١، ١٩٩١م، ج ١، ص: ٧.

الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بــالله ورسوله، وشهد أن لا اله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافــة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم ...[1]"، والتذكير بالعقيدة والإنـذار جاءا لكسرى لأنه مشرك يعبد النار وفاسد العقيدة.

ولكن رسالته للنجاشي فقد تميزت بالإطالة النسبية والاحترام المتبادل بين المرسِل والمرسَل إليه، وفي هذه الرسالة يقول صلــى الله عليــه وسلم: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشــي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد إليــك الله الذي لا اله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتــول الطيبــة الحصينة؛ فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيــده، وإني أدعوك إلى الله، وحده لا شريك له، والموالاة على طاعتــه وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنــودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحــتي ، والســلام على من اتبع الهدى".[2]

ونظرة سريعة إلى هذه الرسالة يظهر ما يلي:

أ - أن النبي صلى الله عليه وسلم افتتح رسالته هذه بالسلام وأنهاهــا بالسلام.

ب - ثم بعد الحمد ذكر بعض أسماء الله الحسنى، والتي هي من عقيدة التوحيد التي يؤمن بها النجاشي.

---

(١)الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار المعارف، ط ٤، ج ٢، ص: ٦٥٤

-. خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دار قباء للطباعة والنشــر، ص: ٢٩ – ٣٦.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ط ٤، دار المعارف، ج ٢، ص: ٦٥٢، مع بعــض التعريف في متن الرسالة.

-. خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٣٣.

ت – بعد ذلك تطرق إلى حقيقة سيدنا عيسى وولادته من وجهة نظر إسلامية.

ث – ثم عرض عليه الإسلام لاتباع دين الله آخر الرسالات.

٢- وتميزت الرسالة المرسلة لوائل بن حجر الحضرمي بالبلاغة ووعورة الألفاظ وغرابتها، إذا ما قورنت برسائله عليه السلام لغير العرب، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يخاطب الناس على قدر عقولهم، ومن كتابه عليه السلام إلى وائل بن حُجْر الحضرمي: "من محمد بن عبد الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت، بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، في التيعة، والتيمة لصاحبها، وفي السّيوب الخمس، لا خلاط، ولا وِراط، ولا شناق، ولا شغار، فمن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام"[(١)]، وبذلك يظهر لنا صعوبة الألفاظ وغرابتها.

٣- لقد حققت الرسائل الهدف من إرسالها، وأدت دورها في بساطة ويسر على المستوى اللغوي دون صنعة ولا غموض ولا لَبْس.

٤- وفي رسائله عليه السلام لغير العرب نجد التشابه في صيغة الأداء بين مكانة المرسِل والمرسَل إليه مع تواضع المرسِل، وحرصه عليه السلام على إظهار عبوديته المطلقة لخالقه عز وجل.

٥- لقد دعم كتابته عليه السلام بمنطق الحس الديني، لإحساسه بحجم التبعة، ومحاولة الإقناع بالحسنى من واقع الصيغ الشرطية المتكررة، أسلم تسلم، أسلم يؤتك أجرك مرتين.

---

(١) ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، ج ٢، ص: ٢٧، ورد: من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، و: على التيعة.

- ينظر: القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج ٦، ص: ٣٧١.

العباهلة: العظام، التيعة: أربعون من الغنم، التيمة: الشاة الداجنة غير السائمة.

السيوب: الأموال المدفونة أو المعدن، الخلاط والوراط: محاولة إخفاء الغنم عن أعين من يجمعون الزكاة، الشناق: الخلاط، أجبى: باع الزرع قبل صلاحه، أربى: من الربا.

- خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٣٧ – ٣٨.

٦- وأحاط المنطق البلاغي في هذه المكاتبات أو الرسائل التي ظهر فيها: الإيجاز، وملاءمة الأحوال ومقتضيات ظروف الدعوة، والوضوح، والقصد إلى الإقناع، والبعد عن الكلفة أو التصنيع.

٧- وأكدت الرسائل على عموم الرسالة النبوية إلى البشرية، وأن دين الإسلام هو دين عالمي وللناس كافة.

لقد كانت رسائل الدعوة النبوية إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، وهي أظهر ما وجد في العهد النبوي من نثر مكتوب، فما من عهود ومواثيق بين المهاجرين والأنصار واليهود، أو بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش، إلاّ كتابة مرهونة بحركة الأحداث المحيطة بالدعوة النبوية، لا تصل في قيمتها إلى الترسل النبوي، أو إلى الترسل الراشدي وما بعده.

ويحاول الدكتور طه حسين أن يقلل من معرفة العرب في عصر النبوة بالكتابة، وما ينتظم فيها من جمل وعبارات فيقول: "نص المعاهدة التي عقدت بين المسلمين والأنصار، والتي أنزلت العرب من المهاجرين والأنصار منازلهم في المدينة، كانت كتابة قوم لم يتعودوا أن يؤدوا أغراضاً سياسية بهذا النوع من الأداء، وإنما كانت تؤدى بالأحاديث، فكتبت في الصحف، كما كانت تردد في الأحاديث"(١).

ولكن الذي يتفحص رسائله صلى الله عليه وسلم، خاصة تلك التي أرسلت لأمراء العرب يرى مدى الفصاحة التي كتبت بها، كتلك التي أرسلها لوائل بن حجر الحضرمي، فالرسول صلى الله عليه وسلم رغم أميته لكنه كان رمزاً للفصاحة والبلاغة والبيان، فلذلك روي أنه قيل: "الأمية في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضيلة، وفي غيره نقيصة"(٢)، وصحابة النبي

---

(١) حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ص: ٤٠.

(٢) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، مجلد ١، ج ١، ص: ٤٠.

- صلى الله عليه وسلم - الكرام كانوا مشاعل وضاءة في الفصاحة العربيـة، وهذا ما سنلاحظه عند حديثنا عن الترسل في العهد الراشدي.

وهناك من يحاول أن يسم الترسل النبوي بالسمات ذاتها في العصـر الجاهلي، فتقول أمل داعوق سعد بهذا الصدد: "مع ظهور الإسلام ظـهرت الدعوة الإسلامية النبوية، وهي تكاد تتسم بنفس صفات الرسائل الجاهليـة، إضافة إلى استعمال ألفاظ مناسبة لحال المخاطب"(١).

وأجمل القول لأبرز الخصائص في الرسالة النبوية:

١- لقد تغلب الهدف الدعوي على الهدف الفني، وظهر الإيجـاز، مـع ابتعاد عن المقدمات المطولة، كما اتصفت بـالوضوح واستخدام الألفاظ السهلة المألوفة، وهذه الصفات اتضحت في رسائله - صلى الله عليه وسلم - إلى كل من هرقل وكسرى السابقي الذكر.

٢- تنوع أساليب الافتتاح في الرسائل النبوية حسـب المرسـل إليـه، وكذلك السلام الختامي، حيث قال في رسالته للنجاشي في المطلـع: "سلام على من اتبع الهدى"، وفي الختام: "والسلام على مـن اتبـع الهدى"، أما في رسالته إلى كل من هرقل وكسرى فقد اقتصرها على قوله: "سلام على من اتبع الهدى" في بداية الرسالة فقط، ونلاحظ في رسالته إلى وائل بن حجر الحضرمي أنها تخلو من السلام والتحميد أو أية مقدمة أخرى.

٣- ومنهم من يثبت أن كتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - تخلو من الصنعة والمحسنات، ويوجد فيها شيء مـن تـوازن العبـارات أو الازدواج أو السجع(٢)، وهذا ما لاحظناه في رسائله السابقة.

---

(١) سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق، ص: ٢٩.

(٢) نصار، حسين، نشـأة الكتابـة الفنيـة في الأدب العـربي، مكتبـة النهضـة المصريـة، ط ١، ١٩٥٤م، ص: ٤٣.

وقد اختلف في عدد كُتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فمنهم من قال: أنهم ثلاثة وعشرون، ومنهم من قال: أنهم خمسة وعشرون، ومنهم من قال: أنهم ثلاثة وأربعون، ومنهم من جعلهم خمسة وأربعين كاتباً[١]، وقد وجد تخصص في كُتّابه عليه السلام، فمثلاً: زيد بن ثابت -رضي الله عنه- كاتب الملوك، ومعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- كاتب البوادي، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كاتب المعاهدات، والزبير بن العوام -رضي الله عنه- كاتب أموال الصدقات.[٢]

ومع وجود هؤلاء الكتبة وتعددهم، نراهم أخذوا يتدربون ويتمرنون على الكتابة، وأخذت خبرتهم تزيد مرة بعد مرة، فقل التكرار وسهل عليهم استعمال اللغة.[٣]

والذي يطالع رسائله - صلى الله عليه وسلم - يلحظ التشابه في نص الرسائل ذات الموضوع الواحد، وإن اختلف الكاتب، فمثلاً رسائل الأمان التي كتبها سيدنا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أو التي كتبها المغيرة ابن شعبة -رضي الله عنه-، أو التي كتبها معاوية -رضي الله عنه- كلها متشابهة شبهاً يكاد يكون تاماً، فشخصية الكاتب غير ظاهرة في هذه الرسائل لأنها كلها من إملاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه، وإن لم يكن من إملائه، كان الكاتب يحتذي حذوه فيما يكتب على مثال رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - وكأنه يملي عليه، وكان لا يتم ذلك إلا بأمر من الرسول عليه السلام، وكان لا بد من إجازة النبي -صلى الله عليه وسلم- لما يكتبه الكاتب، وسبب آخر أن الكتاب كانوا يكتبون دون روية وتفكير، أو محاولة للافتتان، بل المهم عندهم إفهام المكتوب إليه فيما يريدون من معان

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٤م، ص: ٤٣

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٥.

(٣) حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٢، ص: ٤١.

بأسهل أسلوب، ولا نستطيع أن نطلق على كتاباتهم هنا اسم الكتابة الفنيـــة؛ لأنها كانت مرتجلة سريعة مملاة بلغة سهلة هي لغة الحديث[1].

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى ما ذكره القلقشندي عندما قال: "اعلـم أن هذا الديوان [ديوان الرسائل]، أول ديوان وضع في الإسلام، وذلـــك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه مـــن الصحابة ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملـــوك الأرض يدعوهـــم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه ...، وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء"[2].

ولكن هذا القول لا يعتمد على أساس قوي، إذ لا تَلازُمَ بين ديـــوان الإنشاء وهذه الكتابة، حيث إنه قد يوجد مثل هذه الكتابة، ولا يوجد هـــذا الديوان، الذي يتألف من كتاب متروين محبرين متأنقين متفننين، و لم يوجـــد في عهد الرسول الكريم عليه السلام، مثل هذا الصنف من الكتاب، ومن جاء قبل القلقشندي من مؤلفين وأدباء ومؤرخين لم يذكروا مثل هذا الديـوان في العهد النبوي، أو حتى في عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم.

وكل ما يمكن قوله وجود الأساس الذي سيشيد عليه فيما بعد ديوان الرسائل[3]، ومنهم من أيد العبارة الأخيرة بقوله: "ويصح أن نعد هذا العمـل أول خطوة في إنشاء ديوان رسمي للدولة الإسلامية"[4].

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٢) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، ج ١، ص: ٩١.

(٣) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٤٧ – ٤٨.

(٤) الحوفي، أحمد، مجلة المورد، وزارة الإعلام العراقية، مجلد ٤، عدد: ٣، ١٩٧٥م، ص: ٣٠.

٣ - مرحلة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

❖ سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

بعد أن أكمل الله دينه، وأتم على الناس نعمته، وأدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمانته، استلم الراية صديقه الصديق أبو بكر - رضي الله عنه -، خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأمير المؤمنين في الدولة الراشدة الناشئة، ولكن أموراً عظيمة اعترضت أبا بكر - رضي الله عنه -، فهو سينفذ جيش أسامة بن زيد - رضي الله عنه - لمحاربة الروم، وهو سيعمل على الحفاظ على هذه الدولة الفتية من أعدائها المتربصين بها من الروم والفرس واليهود، وبعض القبائل العربية، وهو سيقف في وجه المرتدين الذين أعلنوا ارتدادهم عن الإسلام، فها هو يرسل رسالة إلى القبائل المرتدة ينذرهم عاقبة فعلتهم، وهذه الرسالة[١] تظهر فيها الأمور التالية:

١- بدأها بالبسملة وبيان المرسِل والمرسَل إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه"[٢].

٢- قوله: "سلام على من اتبع الهدى"[٣]، ثم الشهادة بوحدانية الله، وأن محمداً عبده ورسوله، (وأبو بكر هنا وفي معظم أجزاء الرسالة يحاكي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ترسله).

٣- بعد هذا التقديم ينتقل إلى التذكير بدين الله الحق وبأهمية الالتزام بالإسلام، ويوصيهم بتقوى الله عز وجل، "وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ..."[٤].

---

(١) ينظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج ٣، ص: ٢٥٠ - ٢٥١.

- خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٣٨ - ٤٠.

(٢) (٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٣٨.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٣٩.

٤- بعد ذلك تعرض لموضوع الرسالة وذكرهم بوساوس الشيطان، "وقد بلغني رجوع من رجع عن دينه بعد أن أقر بالإسلام ..."[(١)].

٥- ثم تنتهي الرسالة بالإنذار والتحذير، "وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ... وإن أقروا قُبل منهم وحملهم على مبتغي لهم"[(٢)].

ومن خلال هذه الرسالة أرى أنها تتميز بما يأتي:

١- هي رسالة مكتوبة، لكنها كخطبة محكمة الأداء، تناول فيها أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – مسؤولية الحاكم أو الراعي المسلم، وأكثر فيها من الاقتباسات القرآنية[(٣)]، كقوله تعالى:﴿ من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[(٤)]، وقوله عز وجل:﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾[(٥)].

٢- في الرسالة إطالة، نظراً لخطورة الموضوع، وعظم الموقف الحاصل، فالأمر يحتاج إلى بيان وإنذار وتحذير، بعد التذكير بالخالق، والجهل بأمره وإجابة الشيطان.

٣- الوضوح والسهولة في الألفاظ مع التركيز على المقصود.

٤- ويجدر بي أن أشير إلى أن وضع الكتابة لم يتغير كثيراً عما كان عليه في العهد النبوي، فالكُتّاب هم الكُتّاب، والأسلوب هو الأسلوب، ولكن لكثرة الحروب والمعاهدات جعلهم يكثرون من الكتابة، وظهر أمر جديد هو عهود الولاية، أي عهد سيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – لسيدنا عمر – رضي الله عنه –[(٦)]، ونذكر هنا

---

(١) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص: ٣٨ – ٤١.

(٤) سورة الكهف، آية: ١٧.

(٥) سورة فاطر، آية: ٦.

(٦) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٤٨ – ٤٩.

أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- اتخذ سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه- كاتباً له[1]، وقد كانت رسائل الصديق -رضي الله عنه- تفتتح بلفظ: من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان، وبقية الكتاب على نفس نسق كتب النبي - صلى الله عليه وسلم-[2].

❖ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ويستلم راية الخلافة الفاروق - رضي الله عنه -، وتتسع بلاد الإسلام، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، ويزداد تعقيد الحياة، وتتسرب إلى بلاد الإسلام حضارات الأمم المجاورة، وتتعدد مطالب الدولة، فينشئ سيدنا عمر -رضي الله عنه- الدواوين التي تلزم لإدارة شؤون الدولة.

وأهم نَصيْن نستشف منهما بعض مظاهر الكتابة الفنية العمرية، هما: الوثيقة العمرية التي أعطاها ابن الخطاب -رضي الله عنه- لأهل إيليا (القدس) أماناً لهم، والرسالة العمرية (إلى القضاة) والتي أرسل بها إلى أبي موسى الأشعري، ومن خلالهما نستنتج بعض قواعد الكتابة الفنية للترسل العمري.

أولاً: نص الوثيقة العمرية:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون

---

(١) الحوفي، أحمد، مجلة المورد، النثر الفني عربي النشأة، ص: ٣٠.

(٢) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، ج ٦، ص: ٣٨.

على دينهم، ولا يضار أحد منهم، (ولا يسكن مع أهل المدائن)[1]، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[2]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله؛ حتى يبلغ مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن احب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بِيعَهم وصلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيعَهم وصلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا عليه، مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء صار[3] مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء، حتى يُحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان"[4].

وأهم ما اتصفت به هذه الوثيقة:

١- البدء بالبسملة، ثم الإعلان عن طرفي الوثيقة، بعد أن بين عبوديته لله عز وجل، وذكر اسمه، وأنه أمير المؤمنين.

٢- بين ما يشمله الأمان، ومتى وأين وكيف يسري هذا الأمان.

٣- فصل في الحديث بعد إجماله.

٤- وقبل الاستشهاد يختمها بالتحذير، والعهد الذي يشبه القسم.

٥- اللغة سهلة المعاني، واضحة الألفاظ دون إسهاب.

---

(١) وجدت في تاريخ الطبري كما يلي: "ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن".

(٢) اللصت مثل اللص: السارق، وجمعه لصوت.

(٣) وجد في تاريخ الطبري سار بدلاً من صار.

(٤) وجد في تاريخ الطبري نهاية الرسالة: "وكتب وحضر سنة خمس عشرة".

- خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٤٢ – ٤٣.

- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار المعارف، ج ٣، ط ٤، ص: ٦٠٩.

٦- قد نلحظ اقتداء ابن الخطاب - رضي الله عنه- برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في رسائله، من حيث الافتتاح والتفصيل بعد الإجمال.

ثانياً: رسالة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى القضاة التي أرسل بها إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافْهَم إذا ما أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم. ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي - صلى الله عليه وسلم-. اعرف الأمثال والأشباه. وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى احبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر. المسلمون عدولٌ بعضُهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات، ثم إياك والقلق والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تعالى، ولو على نفسه، يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك ستره،

وأبدى فعله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام عليكم"[1].

وهذه الرسالة تتميز بما يلي:

١. بدأها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بالبسملة وأنهاها بالسلام.
٢. بيّن أهمية القضاء وكيف ينفذ بالشكل المناسب.
٣. سهولة الألفاظ.
٤. اللفظ على قدر المعنى.

وترى الدكتورة مي يوسف خليف أن[2]:

١- الصياغة اللفظية سارت في اتجاهات تقريرية مباشرة.
٢- وتقترب الرسالة من الخطابة، حيث لا صنعة معقدة، ولا رغبة في إدهاش الجمهور بل إقناع وتوجيه وإرشاد.
٣- كما تشيع في الرسالة المعاني الدينية، ويعتمد المرسل على الحجة والدليل للإقناع.
٤- وهي تعتبر "خطوة إيجابية على طريق تطور الفن الكتابي بلا كلفة مقصودة، ولا صنعة ظاهرة متعمدة، ولا انحدار إلى مساقات مبتذلة أو سوقية، بل تنطلق من بعد لغوي راقٍ، يعلو فيه اللفظ وتتسق معه دلالته، ويؤدي المعنى فيه بإحكام ودقة".
٥- وتعد هذه الرسالة "إحدى العلامات البارزة على طريق الكتابة الفنية في عصر صدر الإسلام" حيث لا إيجاز ولا صنعة فنية معقدة.

---

(١) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٤٨ – ٤٩.
– الجاحظ: عمرو بن بحر، البيان والتبيين، حققه: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، ص: ٢٣٧.

(٢) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٦٠ – ٦١.

وقد نخلص إلى أبرز خصائص الرسالة العمرية بما يأتي:

١- المحافظة على مطلع الرسالة كما كانت في الرسالة النبوية بشكل عام.

٢- كما لوحظ ظهور مصطلح جديد في المطلع: من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهذا لم يعهد من قبل.

٣- كما لوحظ الحرص على إعطاء المعنى حقه وفق اللفظ المختار له.

٤- ثم التأثر بأسلوب القرآن الكريم في اللفظ والمعنى ونسج الأفكار.

٥- والبعد عن التأنق اللفظي الذي ظهر في وقت لاحق.

ويرى القلقشندي أن الكتابة العمرية لم تتغير عما كانت عليه في عهد سيدنا أبي بكر -رضي الله عنه-. والإملاء لا يزال موجوداً، ولكن، كـــان يطلب من الكاتب أن يحسن الكتابة من عنده، وأحياناً كان يطلـــب مـــن الكاتب أن يكتب بعض الرسائل بنفسه، ومع كل ذلك كـــانت شـــخصية سيدنا عمر – رضي الله عنه – تظهر خلال رسائله كأنه يتكلم بنفســـه[1]. ورغم كثرة الدواوين في عهد سيدنا عمر – رضي الله عنــــه – إلا أنهـــا لا تتصل بالكتابة الفنية[2]. وفي هذه الفترة العمرية نلحظ تعدد الكُتّاب والـــذي يدل على حركة داخلية نشطة في ميدان الكتابة، وهذه أدت إلى إيجاد طبقـــة خاصة من الكُتّاب، ربما قد يكون لها بعض الدور في الســـير بالكتابـــة إلى المرحلة الفنية[3].

ويقول الدكتور طه حسين: "ومع أني لست واثقاً من أن النصـــوص قد صدرت عن [سيدنا] عمر [رضي الله عنه] كما هي، فما من شـــك عندي أن [سيدنا] عمر [رضي الله عنه] أيام خلافته كان أقـــدر علـــى

(١) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، ص: ٥٠ – ٥٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٤.

تسخير اللغة من أيام خلافة [سيدنا] أبي بكر [رضي الله عنه] والنبي [صلى الله عليه وسلم]؛ لأنه تمرن، ولأن كتابه تمرنوا واعتادوا ..."[1].

ثم يضيف: "وهكذا كلما تعقدت الأمور في الفتن والخصومات، وفي الإدارة السياسية، مرنت اللغة، وأصبح أمر الكتابة فيها أيسر مما كان"[2].

هذا وقد شهدت خلافة [سيدنا] عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] ازدهارا واسعا لفنون الرسائل، وكثرت مكاتباته إلى قادته وولاته وعماله وقضاته"[3].

❖ سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه:

وجاء عصر ذي النورين –رضي الله عنه–، واستمرت أنوار الخلافة تسطع في أرجاء الأرض، وتزداد مطالب دولة الخلافة، ويتخذ من مروان ابن الحكم كاتبا له[4]، ليرسل برسائله إلى أصحاب الشأن من المحاربين وأهل الثغور، وإلى الولاة والقضاة.

ولا يختلف عهد سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – في كتبه وترسله عن سابقيه كثيرا، وإن كانت من سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أقرب، وسنتعرف الآن على نموذج من ترسل سيدنا عثمان ابن عفان – رضي الله عنه – منه ما كتبه عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم: "بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد؛ فإن الله عز وجل بعث محمدا بالحق بشيرا ونذيرا، فبلغ عن الله ما أمره به، ثم مضى وقد قضى الذي عليه؛ وخلف فينا كتابه، فيه حلاله وحرامه، وبيان الأمور التي قدر، فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا، فكان الخليفة أبو بكر – رضي الله عنه – وعمر – رضي الله عنه –، ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملإ من الأمة، ثم

---

(١) (٢) حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، ص: ٤٢.

(٣) عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، ص: ١٧٧.

(٤) الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، ج ٤، ص: ٣٠.

أجمع أهل الشورى عن ملإ منهم ومن الناس علي، على غير طلب مني ولا محبة؛ فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، تابعا غير مستتبع، متبعا غير مبتدع؛ مقتديا غير متكلف. فلما انتهت الأمور، وانتكث الشر بأهله؛ بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب؛ فطلبوا أمرا وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر، فعابوا علي أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملإ من أهل المدينة لا يصلح غيرها؛ فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين".

"وأني أرى واسمع؛ فازدادوا على الله عز وجل جرأة، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب؛ فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون؛ فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق بهم"(١).

ومن الملحوظات التي أسجلها على هذه الرسالة العثمانية:

١- كتب سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه- هذه الرسالة وهو في ظروف صعبة، حيث تجمع أناس من مناطق شتى لقتله، فلجأ في رسالته هذه إلى المسلمين يطلب النجدة ووقف الفتنة.

٢- رغم صعوبة الموقف، فإن ذا النورين بقي ملتزماً بدينه وإسلامه، وأخذ يعلن في رسالته هذه إلى أهل الأمصار، كيف وصلت إليه الخلافة دون أن يطلبها، وكيف حكم بين الناس، ورغم صبره على إيذاء أهل الفتنة، وما تحمل منهم، إلا أنهم ماضون في موكب فتنتهم.

٣- في رسالة سيدنا عثمان بن عفان، لم يظهر لنا أي تكلف أو صنعة أو تأنق، ربما لأن الموقف لا يتطلب ولا يحتمل ذلك، أو لأن طبيعة الموضوع تحتاج لمثل هذا الأسلوب، فسيدنا عثمان بن عفان -رضي

---

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار المعارف، ج ٤، ص: ٣٥١ - ٣٥٢.

الله عنه- اختار من الكلمات والجمل أكثرها إثارة في نفوس السامعين أو القارئين؛ لأنه يريد أن يستنهض هممهم ويستحثهم على المساعدة.

٤- وألفاظ الرسالة سهلة، موافقة للمعنى، وتظهر جملها حقائق تاريخية من عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يوم كتابة هذه الرسالة، فبدا أسلوبها إخباريا على الأغلب، إلا ما كان في آخرها عندما طلب منهم أن يلحقوا به ويدركوه قبل فوات الأوان.

٥- كما ظهرت بعض العبارات المسجوعة العفوية كقوله:

وخلف فينا كتابه / فيه حلاله وحرامه.

ما يعرفون / ولا ينكرون.

وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب.

❖ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وينتقل سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، بعد أن استشهد إلى جوار ربه، وتستمر الفتنة تطل برأسها، ويبايع سيدنا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالخلافة، وتبدأ الخصومات بين سيدنا علي ومعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-، وتشتد الفتنة.

وتكثر الرسائل والمكاتبات، حيث كثرت كثرة ملحوظة، وأخذت تطول، وتسير أحيانا على نهج رسائل سيدنا عثمان -رضي الله عنه-، وقد روى الطبري أن سيدنا عليا – رضي الله عنه – كتب إلى أهل الكوفة حين خرج من الحجاز في إثر السيدة عائشة – رضي الله عنه – فقال:

"إني اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة

إخواناً، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمضه"(١).

ويظهر في هذه الرسالة ما يلي:

١- الإيجاز والبعد عن الإطناب لأن الموقف لا يتطلب إطالة.

٢- ربما تكون هذه الرسالة مقتطعة من رسالة أكبر اشتملت على أمور أكثر.

٣- استخدم فيها سيدنا علي -رضي الله عنه- أساليب منوعة: أمرية، شرطية، تقريرية، بعض المحسنات اللفظية كالطباق مثل قوله: أحب، أبغض.

ويتخذ سيدنا علي - كرم الله وجهه - عبد الله بن رافع كاتباً له(٢)، ويكثر من رسائله إلى جهات مختلفة، ويروى انه عندما وقعت الفتنة بين المسلمين في عهد سيدنا علي -رضي الله عنه- خاصة، وقع التراسل بينه وبين الفريق الأموي، حيث سميت هذه الرسائل فيما بعد بالرسائل الديوانية أو الرسمية لأنها اتخذت الطابع الرسمي.

ومن الرسائل المهمة لسيدنا علي - كرم الله وجهه - رسالته التي قرأها قيس بن سعد على أهل مصر والتي جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو. أما بعد، فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده، وخص لها من انتخب من خلقه، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط ١، ص: ٥٦.

- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج ٤، ص: ٤٧٨.

(٢) الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، ص: ٣٠.

الأمة، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنّة، لِكَيما يهتدوا، وجمعهم لكي لا يتفرقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا، ورفههم لكيما لا يجوروا، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملاً بالكتاب والسنة، وأحسنا السيرة، ولم يعدوا السنة، ثم توفاهما الله عز وجل -رضي الله عنهما- ثم ولّى بعدهما والٍ فأحدث أحداثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيّروا، ثم جاءوني فبايعوني، فأستهدى الله عز وجل بالهدى، وأستعينه على التقوى، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد بعثت إليكم قيس ابن سعد بن عبادة أميراً فوازِروه وكانفوه، وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشد على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصيحته، أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

وتعتبر هذه الرسالة من الرسائل المهمة التي شهدها تاريخ الكتابة الفنية في عصرها الأول، حيث تميزت[2] هذه الرسالة بأمور منها:

١- لقد ألقى البعد الديني بظلاله على هذه الرسالة، حيث البسملة والتسليم والتوحيد والتحميد والوعظ والإرشاد والدعاء.

---

(١) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٦٢ – ٦٣.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج ٤، ص: ٥٤٨ - ٥٤٩.

(٢) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٦٢ – ٦٥.

٢- وتتجلى في هذه الرسالة، اللغة الواضحة الدلالة، السهلة الأداء، وإن مالت أحياناً إلى مقومات الصنعة، على غرار ما جاء من التقسيم الصوتي، كقوله: (لكيما يهتدوا، لكيما يتطيروا، لكيما يجوروا). بالإضافة إلى وجود بعض المطابقات اللفظية من غير كلفة أو قصد التصنع، مثل (الشد، الرفق).

وفي ختام مرحلة الخلفاء الراشدين اخلص إلى النتائج التالية:

١- لقد تأثر كُتّاب هذه المرحلة بالقرآن الكريم واقتبسوا منه، وتجنبوا الغريب من الألفاظ، مع الحرص على وضوح المقصد والإقناع، دون جنوح إلى عمق فلسفي أو تعقيد فكري، فالأساليب المختارة فيها تنويع وتأثير، مع بلاغة اللفظ والمعنى، والإكثار من الحجج والبراهين، وصيغ الإقناع والميل إلى الإيجاز، مع اقترابها من اللغة الخطابية[1].

٢- الاعتناء بتهذيب الألفاظ، مع التأنق في صوغ العبارات، ومحاكاة أساليب الكتاب والسنة، بالإضافة إلى ترتيبهم للمعاني والأفكار دون تغلغل فيها، وقد ظهر الإيجاز في أول هذه الفترة والميل إلى الإطناب آخرها[2].

٣- زادت الحاجة إلى الرسائل في هذا العصر لاتساع رقعة الدولة الإسلامية ولكثرة الخلافات، وحاجة الفاتحين إلى إخبار الخليفة لهم بالأحوال والمهام، وبالنسبة للولاة فقد كانت الرسائل تمثل دستوراً لهم، تعينهم في ممارسة مهام أمور ولايتهم.

---

(١) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ٦٥ - ٦٦.

(٢) الإسكندري، أحمد، الوسيط في الأدب العربي، مطبعة المعارف، ص: ١٣٦.

٤- كان الكاتب في عهد الراشدين شخصاً يختاره الخليفة ويجعله في بطانته[1].

٥- كانت الكتابة في هذه الفترة ناشئة مبتدئة، ليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة. لغتها بسيطة، خالصة صريحة تشبه لغة الحديث، ويقصد منها الإفهام، ولم تتطور لغة الرسائل كثيراً، مع شيوع نظام الإملاء، حيث يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب، ولتجويده وتفننه، وقد وجدت ظواهر عدة تدل على تطور الكتابة منها: شيوعها، وكثرتها، ووجود الدواوين وانتشارها، وظهور الكتاب الخاصين بالولاة والأمراء، والتجمل بالاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد بالشعر والميل إلى التشخيص، ومع ذلك فإن الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه، ولكنها كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة[2]. فلا تأنق ولا قصد إلى تفنن أو زخرف فني خاص[3].

٦- تميزت الرسالة أيضاً بالجزالة، والميل إلى التلميح دون التصريح، والإيحاء دون التفسير.

٧- لقد صارت الرسائل التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام -رضوان الله عليهم أجمعين- من بعده نماذج تحتذى وسنة تقتفى، من حيث المضمون والشكل والأسلوب[4].

---

(١) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩م، ج ١، ص: ٣٧٥.

(٢) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، ص: ٥٩ – ٦٠.

(٣) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨، ص: ١٠٦ – ١٠٨.

(٤) عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، ص: ١٧٨.

٤- مرحلة العصر الأموي:

وبعد أن تحدثنا عن الكتابة وما ظهر فيها من ترسل في المراحل السابقة، نقول: إن قطرات الكتابة الفنية تجمعت في بحيرة الترسل، التي ترفدها جداول من الترسل الجاهلي، وأخرى من الترسل النبوي والترسل الراشدي، ولكن أمطار الترسل في المرحلة الأموية كانت غزيرة وقوية، حتى فاضت البحيرة وتحولت إلى بحر من الترسل، جعلت المرحلة الأموية تحتل مركز الصدارة في تاريخ الترسل العربي، فكيف تم ذلك؟ هذا ما سنتعرف عليه فيما يلي إن شاء الله تعالى:

فقد رفع الراية الأموية سيدنا معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- على ربوع دمشق، متخذاً منها عاصمة الخلافة الجديدة، واتسعت رقعة الدولة شرقاً وغرباً، ونشطت الكتابة نشاطاً سريعاً ملحوظاً ، وعاش الناس حياة ترفه وتحضر، "وهذا التحضر يتبعه تعقيد في الحياة وتشابك في المصالح، وحاجة إلى التفاهم والتواصل، وهذا ما يطور كتابة الرسائل وينميها"(١).

وبعد أن كانت الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة، والنسخ من الكاتب، أخذ الكاتب في هذا العصر يستقل وتظهر شخصيته، ويتطور الأمر "أواخر العصر الأموي حتى نرى (قبيصة بن ذؤيب) يفحص الكتب الواردة على عبد الملك بن مروان، ويقرؤها قبل عرضها على الخليفة"(٢).

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٦١.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٦٤.

ويعد هذا التصرف خطوة هامة في تاريخ تطور كتابة الرسائل والعلاقة بين الكتاب والخلفاء، لأن فيه أهمية لشخصية الكاتب واستقلاليته.

وتتعدد المكاتبات، وتكثر الدواوين، وينشئ معاوية -رضي الله عنه- ديوان الرسائل وديوان الخاتم(١).

وذكر أن عبيد الله بن أوس، كان يكتب لمعاوية على ديوان الرسائل، وكتب عليه أيضاً كل من يحيى بن يعمر، وروح بن زنباع، وهم من العرب الخلص، وهذا يدعم أن ديوان الرسائل الذي انتشر في الولايات الإسلامية المختلفة، كان عربي النشأة، وأنه "نشأ نشأة عربية خالصة، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية"(٢). حيث نرى الموالي من الأعاجم ينافسون العرب في هذا الميدان كسالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب(٣).

ويهتم الناس بالكتابة، ويحاول كل منهم إظهار قدراته البيانية والبلاغية، فتظهر طبقة من الكتّاب المحترفين، الذين أخذوا يعتبرون كتابة الرسائل مصاحبة لأمور بلاغية فنية، تختلف من كاتب إلى كاتب آخر، ومن مترسل إلى آخر، ومن عصر إلى آخر، ومن بيئة إلى بيئة أخرى.

وبعد أن كانت الرسالة تملى من الخليفة، أخذ الكاتب هو الذي يعد الرسالة ثم يعرضها على الخليفة، حيث أدى ذلك إلى تغيير في صيغة الرسالة، إذ لم يعد ضمير المتكلم هو السائد في الرسالة، بل أصبح ضمير الغائب، فالكاتب يقول في بداية الرسالة: بلغ أمير المؤمنين كتابك ..

---

(١) الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، ص: ٣٠.

(٢) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٦٨ – ٦٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٦٨ – ٦٩.

وفي عهد عبد الملك بن مروان عربت الدواوين الموجودة في فـــارس والشام، وفي عهد الوليد بن عبد الملك عربت دواويـــن مصـــر، فـــامتلأت بالعرب وبمن أجادوا العربية. وفي عهد هشام بن عبد الملـــك اشـــتهر هـــذا الديوان بالافتتان الذي يرجع إلى سالم بن عبد الله مولى هشام، والذي تتلمـذ على يديه أبرع الكتاب وأعظمهم أثراً وأبعدهم صيتاً: عبد الحميد بن يحـــيى الكاتب، الذي تولى الكتابة لمروان بن محمد إلى أن أفلت شمس بني مـــــروان وأشرقت شمس بني العباس[1].

وكما ذكرت سابقاً فقد أنشأ سيدنا معاوية ديوانين همـــا: ديـــوان الرسائل وديوان الخاتم: فديوان الرسائل كانت تصدر عنه رسائل تفيض بياناً، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة، وديوان الخاتم: ومهمته أن يرســـل إليه ما يكون للخليفة من توقيع؛ ليصدر منه مختوماً لا يدري حامله ما فيـــه، ولا يستطيع أن يغيره[2].

ونستطيع أن نلحظ أن أسلوب النثر الأموي قـــد تمـــيز بمـــيزات منها:[3] إثارة الخيال للسامع باستخدام المجازات اللغوية، مع الإكثـــار مـــن الألفاظ القوية البالغة التأثير ودقة التعبير، وصفائه وخلوصه من شوب اللكنـة والعجمة واللحن إلا قليلاً، ونراه أيضاً يترك الالـــتزام بالســـجع، ويـــأخذ بأساليب القرآن الكريم والحديث الشريف لما فيهما من قوة وبلاغة وبيان.

---

(١) الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، ص: ٣٠.

ينظر: مهنا، د. علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ص: ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٢) سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيـــادة، دار الآفـــاق الجديـــدة، بـــيروت، ط ١، ١٩٨٢م، ص: ٢٩٥ – ٢٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص: ٢٩٥.

ومما يجدر الإشارة إليه إلى أن الكتابة الفنية مرت بمرحلتين هما[1]:

❖ المرحلة الأولى:

تمتد من قيام الدولة الأموية عام ٤٠هـ إلى عهد الوليد بن عبد الملك، وفي هذه المرحلة تميزت الكتابة بما كانت عليه في صدر الإسلام من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة، وقلة التكلف والارتجال.

❖ المرحلة الثانية:

من أيام الوليد بن عبد الملك إلى نهاية الدولة الأموية، وقد أخذت الكتابة الفنية فيه تتدرج في التأنق والصنعة والإطناب وإشراق البيان، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها، وكان زمامها بأيدي الموالي المثقفين بثقافة عربية واسعة، إضافة إلى ثقافة بعضهم اليونانية والفارسية، كعبد الحميد الكاتب الذي حمل سيف الترسل، ونزل إلى ميدان الكتابة الفنية؛ ليحقق مكانة سامقة لم يصل إليها غيره في فن الترسل، عبر تاريخ الأدب العربي من الجاهلية حتى عصره، وربما حتى بعد ذلك.

ويرى الدكتور شوقي ضيف: أن الرسائل بعد منتصف القرن الأول للهجرة تميزت بالتجويد والجمال الفني، والتحبير والتنميق، والتنويع في المعاني، مع صور مختلفة من الإطناب[2]، وفي أوائل القرن الثاني الهجري، ينهض سالم مولى هشام بن عبد الملك بكتابة الرسائل نهضة واسعة، حتى عُدّ أحد البلغاء العشرة في تاريخ العرب وأدبهم، والذي تميز أسلوبه بالازدواج والترادف الصوتي، وكان يتكئ على الحال اتكاءً شديداً، ربما لتأثره

---

(١) ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم (وزميله)، التفسير الإعلامي للأدب العربي، ص: ٢٩٧.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨، ص: ١٠٦ – ١٠٨.

باليونانية، والذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب،أنبه كتاب العصر وأشهرهم[1].

وإذا أردنا أن نرصد أبرز خصائص فن الترسل في هذا العصر فإننا نسجل الملحوظات التالية:

١- ظهور معالم الصنعة في فن الكتابة: حيث الإطالة والسجع والمجانسة، والمقابلات والتصوير وحسن النسق ولازمة الحال، وتجاوز الكاتب الإقناع إلى مستوى الإمتاع وكثرة التفاصيل، ونبغ الكتاب في فن الرسائل الإخوانية والديوانية[2].

٢- سيطر التوازن الإنشائي على فنون النثر العربي خاصة الرسالة، وذلك من أواخر العصر الأموي إلى أواسط العصر العباسي كما بدا ذلك واضحاً في ترسل عبد الحميد الكاتب وغيره[3].

٣- كما تطورت الرسائل تطوراً سريعاً لم يسايرها في ذلك فرع آخر من فروع الأدب[4]، حيث رمى بها هذا التطور إلى أحضان الفن منذ أوائل العصر الأموي[5].

٤- أصبحت الرسائل قبل أن ينقضي العصر الأموي صناعة ذات قواعد وأصول، وأصبح للرسالة مطالع فيها تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم أو توجه إليهم، ولها خواتيم تختلف بحسب ذلك،

---

(١) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨، ص: ١١٠. كان سالم مولى هشام بن عبد الملك يعرف اليونانية، وترجم منها بعض رسائل لأرسطاليس، ينظر: ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب إسحاق، الفهرست، دار المعرفة، ص: ١٨١-١٨٢، وذكر ابن النديم: البلغاء عشرة وهم: عبد الله بن المقفع، عمارة بن حمزة، حجر بن محمد، محمد بن حجر، أنس بن أبي الشيخ، وعليه اعتمد أحمد بن يوسف الكاتب، سالم، مسعدة، الهرير، عبد الجبار بن عدي، أحمد بن يوسف.

(٢) خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، ص: ١٦٠ - ١٦١.

(٣) سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، ص: ٢٩.

(٤) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٧٠.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٧٧.

وظل الترسل في العصر الأموي في أغلب الأحيان فناً رسمياً يتعلق بأمور الدولة[1].

٥- ومما يميز رسائل هذا العصر، حسن اختيار الألفاظ، وبراعة أداء المعاني، وأناقة صوغ الكلام، مع التبسط في شرح الأغراض والاسترسال في تفريغ المعاني[2].

٥ - مرحلة العصر العباسي (حتى العصر الثالث):

وتدور الأيام، وتسقط راية بني أمية، وترتفع راية بني العباس، وتستقر أمور الدولة، وينعم الناس بالحضارة والثقافة، وترف الحياة ورغد العيش، وتكثر الحاجة إلى الكتاب والأدباء والشعراء لتلبية مطالب الحياة الناعمة، ويظهر كتاب الدواوين على مسرح الحياة، ويتصفون بالثقافة الواسعة، وعمق أفكارهم، وترتيب معانيهم ترتيباً دقيقاً، ووقفوا على الألفاظ المتخيّرة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى السبك الجيد، والتنميق الذي وجد في عباراتهم ربما كان لترف الحياة، وبذخ العيش أثر في ذلك[3].

وفي القرن الثالث الهجري استمر السجع وسائر ألوان البديع في الرسائل الديوانية، واستمر في الرسائل الإخوانية أيضاً في القرن الرابع الهجري وما بعده[4]، وكان أكثر كتاب العصر العباسي يجنحون إلى السجع في كتاباتهم، ويستخدمون زخرف البديع والترصيع[5].

---

(١) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط ٢، ج ١، ص: ٣٧٥.

(٢) اليازجي، كمال، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، دار الجليل، ط ١، ١٩٨٦م، ص: ٦٣.

(٣) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٣م، ص: ١٥١ – ١٥٤.

(٤) الدقاق، عمر، ملامح النثر العباسي، دار الشرق العربي، ص: ٣٠.

(٥) المرجع السابق، ص: ٣٩٩ – ٤٠٠.

لقد حافظ كُتّاب الترسل على معظم الصفات التي أوجدها (أو اتصف بها) ترسل عبد الحميد الكاتب، وبقي الأمر كذلك حتى أوائل القرن الرابع، حيث أخذت الصناعات اللفظية تتغلب تدريجياً؛ لتغلب الأعاجم من الديلم البوهيين والترك والسلجوقيين على سلطان الخلفاء. ولنا هنا أن ندون بعض التغييرات التي طرأت على كتابة الرسائل في عصر الدولة العباسية[1]. **وتتلخص فيما يلي:**

تعدد أغراض الكتابة، وموضوعاتها، بتعدد أعمال الدواوين، ودقة المعاني واستقصاء جميع جزئياتها، وترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً، والغلو في الإطناب والإيجاز، وسهولة العبارة وانتقاء ألفاظها، وشيوع السجع القصير الفقرات غالباً، والولوع بالمحسنات البديعية، كالجناس والطباق والتوجيه وضرب المثل، وتضمين الأحاديث النبوية، والاقتباس من كلام البلغاء، وزيادة أنواع البدء والختام في الرسائل، وزيادة الرسوم في الألقاب والدعاء، وتخصيص كل ذي مرتبة بلقب أو دعاء، بما يشعر بتعظيم الملوك والأمراء.

وجملة القول:

إن الكتابة في هذا العصر وصلت إلى أرقى ما وصل إليه الإنشاء العربي.

وعنصر السجع، وهو العنصر الأول في مذهب التصنيع ظهر منذ القرن الثاني الهجري، وفي القرن الثالث وجدناه في الرسائل السياسية[2]، وفي القرن الرابع الهجري سيطر السجع على فن الترسل في الرسائل الديوانية والأدبية[3].

---

(١) الإسكندري، الشيخ أحمد، الوسيط في الأدب العربي، مطبعة المعارف، ص: ١٩٨ — ٢٠١.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ص: ١٩٧ — ٢٠٠.

(٣) سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، ص: ٣٠.

وتتعد مراكز النهضة الأدبيـــة والمقترنـــة بـــالتصنيع في الإمـــارات الفارسية[1]، التي كان من آثارها أن ظهرت الإمارة الســـامانية ومركزهـــا نيسابور التي خرَّجت لنا الثعالبي.

وكذلك الإمارة البويهية ومركزها همذان والتي أخرجت للأدب بديع الزمان الهمذاني.

وأصبهان التي أوجدت الصاحب بن عباد، والري التي أوجدت ابـــن العميد، ومثلها خوارزم التي خرجت أبا بكر الخوارزمي.

وتكاد المصادر تجمع على أن نمو الحضـــارة والســـلطان في العصـــر العباسي، أثّر في الإنشاء تأثيراً زاده تأنقاً، وبنقل العلوم اليونانية وغيرهـــا إلى اللغة العربية اتسعت لغة الكتابة، ودخل كثير من الألفاظ الجديـــدة[2]. وإذا ألقينا نظرة على الأسلوب الكتابي في الصدر الأول من العصر العباسي، رأينـا العبارات فيه أميل إلى التوازن، مع عدم التقيد بالسجع[3].

ويرى جورج غريب[4]، أن الرسائل أغرقت في الصناعـــة، فبـــاتت مسرحاً للسجع والجناس والطباق والإطناب وســـائر المحســـنات اللفظيـــة والمعنوية، ومن تأملها وجدها أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، مـــع كـــثرة التضمين والأشعار، والتفخيمات وجوامع الكلم، حتى إذا قاربت نهاية العصر ثبتت لها أصول ومصطلحات.

لقد تزعم الكتابة الفنية في العصر الأموي، خاصة في أواخـــره عبـــد الحميد بن يحيى الكاتب، وإذا كان مقتل مروان بن محمد أذن بانحسار دولـــة بني أمية، وعصرهم العربي الخالص، فإن مقتل عبد الحميد الكاتب لم يكـــن كذلك، لأن نثره ترك طابعاً واضحاً على آثار كثير من بلغاء وكُتّاب العصـــر

---

(١) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ص: ٢٠٣ — ٢٠٥.

(٢) (٣) المقدسي، أنيس، الدول العربية وآدابها، المطبعة الاميركانية، بيروت، ط ٦، ص: ١٥٢.

(٤) غريب، جورج، العصر العباسي، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٨م، ص: ١٤٣ — ١٤٤.

العباسي في القرنين الثاني والثالث، حيث ورث العصر العباسي ما حققته الكتابة من تطور ظاهر في العصر الأموي على يدي سالم مولى هشام وعبد الحميد[1]. ثم خلف من بعدهما خلف ابتعدوا عن المزاوجة، واقتربوا من السجع الكامل تدريجياً، إلى أن أصبح هذا مدرسة على رأسها ابن العميد، ومن رجالها أبو إسحاق الصابئ والخوارزمي، وتنمقوا فيه، وأثقلوه بالبديع، وقد يأتي الكتاب كله مسجوعاً، وشمل ذلك الكتب الرسمية والإخوانيات[2]. والتي سنرى نماذج منها في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

ويؤكد الدكتور علي جميل مهنا[3] أن الترسل في صدر العصر العباسي تأثر بأسلوب عبد الحميد، الذي يغلب عليه التبسط وتوازن العبارات، ومنذ القرن الرابع الهجري قويت شوكة السجع حتى تغلب على سواه من أساليب الكتابة، و لم يلبث بعد ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان أن أصبح النمط الشائع، وصار المترسلون لا هَمَّ لهم إلا التأنق بأنواع البديع.

يرى جرجي زيدان[4] أن لكل عصر إمام في إنشاء المراسلات كعبد الحميد وابن المقفع في العصر العباسي الأول، والجاحظ في العصر الثاني، وابن العميد في العصر الثالث، ويؤكد ما يراه غيره أن الرخاء يدعو إلى التأنق، فتطرق ذلك إلى إنشائهم، فصاروا يتأنقون فيه كما يتأنقون بلباسهم

(١) العلاق، حسين صبيح، الشعراء والكتاب في العرق في القرن الثالث الهجري، مؤسسة الأعلمي، ص: ٢٢.

(٢) مكي، الطاهر أحمد، مقدمة في الأدب المقارن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ١٩٩٤م، ص: ٨٩.

(٣) مهنا، د. علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط ١، ١٩٨١م، ص: ٢٢٤.

(٤) زيدان، جورجي، كتابة تاريخ آداب اللغة العربية، ص: ٢٦٥ – ٢٦٩.

وطعامهم وأثاثهم، فأطالوا العبارة وتوسعوا في التنميق، ويطلق جرجي زيدان على مدرسة ابن العميد الطريقة المدرسية، **والتي من صفاتها:**

السجع والجناس والبديع، والخيال الشعري والتضمين، والاقتباس والاستشهاد، وتفرع الترسل إلى أبواب كما تفرع الشعر، كرسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والإخوانيات والسلطانيات وغيرها، وصار للرسائل نمط خاص من حيث البدء والعرض والختام، وصار الإنشاء فناً، له ألفاظ خاصة، سموها الألفاظ الكتابية، وتولدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته، كالتسجيع والترصيع والتقسيم ...

أنـــــواع الرســـــائل

وأنتقل الآن للحديث عن أهم أنواع الرسائل، والتي برزت على ساحة الكتابة الفنية، من العصر الجاهلي وحتى عهد ابن العميد في العصر العباسي، مبيناً خصائص وأغراض كل نوع.

أولاً: الرسائل الديوانية (الرسمية)

من المرجح أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- هو أول من أنشأ ديوان الرسائل، ثم انتشر في سائر الولايات الإسلامية، ونرى أن أوائل من تقلدوا هذا الديوان كانوا عرباً خلصاً، مثل: عبيد الله بن أوس، ويحيى بن يعمر، وروح بن زنباع، وهذا يدل عند بعض الدارسين على أن ديوان الرسائل عربي النشأة، وليس بالفارسي ولا باليوناني كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين، ثم نافس الأعاجم العرب في هذا الميدان، فتعلموا العربية وأتقنوها وتفننوا فيها، ومنهم من تقلد ديوان الرسائل، كسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك، الذي تقلده لهشام، وجاء تلميذه عبد الحميد الكاتب، مولى بني عامر؛ ليتقلد ديوان الرسائل لمروان بن محمد الأموي، "فديوان الرسائل نشأ نشأة عربية خالصة، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية"[1]، حاولت أن تؤثر في أسلوب وطريقة عرض الرسالة كما يرى البعض.

وهذه الرسائل يتبادلها الخلفاء والولاة وقواد الجيش، وتصدر عن دواوين الحكام، وتعنى بأمور الدولة وشؤونها السياسية، ويراعى فيها دقة المعلومات والرسوم المتعارف عليها.

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٦٨ – ٦٩.

ومن هذه الرسائل: العهود والمواثيق، والمناشير، والفتوحات، وانتقال الخلافة، والدعوة إلى الطاعة والحث على الجهاد[1].

وتهدف هذه الرسائل إلى نشر الحقائق بأسلوب هادئ واضح بعيد عن الزخرفة[2].

كما تتطلب هذه الرسائل ثقافة واسعة في اللغة والأدب والتاريخ، وحفظ عدد من الشواهد الشعرية والنثرية والأقوال والحكم، لا سيما القرآن الكريم والحديث الشريف، وتتصف بالأسلوب الرصين المنمق البلاغي[3]، وهذه الرسائل صارت منذ العصر الأموي فناً اختص به جماعة فرغوا له، واشتهر من كتاب الدواوين من لهم في اللغة والأدب فضل ظاهر، منهم: عبد الحميد الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد[4]. ومثل هذا النوع من الرسائل كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام.

وكلما اتسعت رقعة الدولة زادت الحاجة إلى الرسائل، وقد كانت الكتابة في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي جسراً إلى أرفع المناصب، ومن يدخل ديوان الرسائل يمتحن، وكان لا بد له من إتقان صناعة الكتابة مع ثقافة لغوية وأدبيّة وتاريخية وسياسية ودينية وغير ذلك، "فكاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف الفصل من الوصل، والصدور والتهاني، والتعازي، والترغيب والترهيب، والمقصور والممدود، وجملاً من العربية"[5].

وستظهر ميزات أخرى لهذا النوع من الرسائل عند الحديث عن عبد الحميد الكاتب وابن العميد وترسلهما، إن شاء الله تعالى في هذا البحث.

---

(١) عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ص: ١٦٢.

- شلق، علي، نقاط التطور في الأدب العربي، ص: ٢٣٢.

(٢) غالب، حسين، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧١م، ص: ١٨١ – ١٨٢.

(٣) التونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٢، ص: ٤٧٨–٤٧٩.

(٤) حسين، طه (وآخرون) التوجيه الأدبي، لجنة التأليف والنشر، ص: ٢٠ – ٢٣.

(٥) مهنا، د. علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط ١، ١٩٨١م، ص: ٢٢٤.

ثانياً: الرسائل الإخوانية (الشخصية)

لا يوجد ما نستطيع أن نسميه إخوانيات الجاهليـة[1]. وفي الصـدر الأول من الإسلام لم نكد نجد شيئاً من الرسائل الإخوانيـة، غـير رسـالة إخوانية واحدة للنبي – صلى الله عليه وسلم – يعزي فيها معاذ بن جبـل في ابن مات له، وهذا نصها:

"من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد،

فعظّم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشـكر. ثم إن أنفسنا وأهلنا وموالينا من مواهب الله السَنِيّة، وعوارفه المستودَعة، نُمتّع بهـا إلى أجل معدود، وتُقبض لوقت معلوم. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطـى، والصبرَ إذا ابتلى.

وكان ابنك من مواهب الله السنية، وعوارفه المستودعة، متعك بـه في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير: الصلاة والرحمة والهدى، إن صـبرت واحتسبت. فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين: أن يُحبِط جزعُكَ صَـبْرَك، فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك، قـد أطعـت ربـك وتنجزت موعوده، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً، ولا يدفع حزناً، فأحسن الجزاء، وتنجز الموعود، وليذهبْ أسَفَك ما هو نازل بك، فكأنْ قد"[2].

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٧٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٧٩.

– صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج ١، ص: ٦٦ – ٦٧: لم أجد كلمة السـنية في الجمهرة بل وجدت كلمة الهنية بدلاً منها.

– القلقشندي، صبح الأعشى، أحمد بن علي، ج ٩، ص: ٨٠ – ٨١.

ويطلق اسم الرسائل الإخوانية على جميع الرسائل غير الديوانية[1]، ولا يستطاع الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلاً تاماً[2].

وتميزت الرسالة والإخوانية في عهد صدر الإسلام بالبساطة والسهولة والصراحة، وقد يظهر السجع أو المزاوجة[3]. وقد سبب وجود نظام البريد في عهد سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عاملاً مهماً في الرقي بالرسائل الإخوانية وغيرها؛ لسرعة تبادل ونشر الرسائل[4]. ولعل ما وصلنا من رسائل عصر صدر الإسلام قليل كما أشرنا سابقاً؛ لعدم عناية الأدباء بهذا النوع من الرسائل؛ لأنهم لم يعتبروه فناً من الفنون، وخاصة أنه يتصل بالشؤون الخاصة للأدباء، ولأن الأدب العربي أدب قصور يعيش على موائد الملوك، وسبب آخر هو عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن، أما الكتابة السياسية وإن كانت لا تصل إلى مرتبة الفن، فقد حفظت لارتباطها الشديد بالتاريخ، حيث دونت في كتب التاريخ لا في كتب الأدب، وسبب حفظ بعض الرسائل الإخوانية لاشتمالها على المواعظ[5]، والتي يتناقلها الناس فيما بينهم، أو يدونونها لمواعظها.

والرسالة الإخوانية بالذات مليئة بالعواطف والمشاعر، وفيها عتاب واعتذار، وتهان، وغير ذلك من موضوعات الشعر، فهي أوسع مجالاً، وأعظم قدراً، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته، وتصوّرُ كثيراً من آراء

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، أحمد بن علي، ج ٩، ص: ٧٨.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٨٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٨٢.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٨٣ – ٨٤.

(٥) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٨٤ - ٨٥.

الناس ومنازعهم وعاداتهم وأخلاقهم، وأحوال الأمة التي يعيشون فيـــــها[1]، على اختلاف ظروفها، في الحزن والفرح، وفي اللقاء والوداع، وفي الـــزواج وولادة الولد، وفي السفر والعودة منه، وغير ذلك من الموضوعات الشـخصية والاجتماعية.

والذي يظهر لنا أن أسلوب الرسائل الإخوانية كأســـلوب غيرهـــا، يتطور بتطور العصر الأدبي، فقد اتصف في مرحلة من مراحله، بأنه أســلوب منمق مصنوع بفنون الصنعة البديعية[2].

وهي أقرب إلى الأدب من الرسالة الديوانيــــة، لوجـــود العواطـــف والتخيلات، وفيها مجال لأن يظهر الكاتب قدرته على الصياغـــة الإنشـــائية الأدبية[3]، ويمكن أن يلحق بهذا النوع، الرسائل الوعظية والرسائل الدينيـــــة الجدلية[4]، وقد ترتقي الرسالة هنا لتصبح نصاً أدبياً راقياً، في أسلوبه وألفاظـه ومعانيه وأفكاره.

(١) حسين، طه (وآخرون) التوجيه الأدبي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص: ٢٠ – ٢٣.

(٢) التونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، ج ٢، ص: ٤٧٨ – ٤٧٩.

(٣) غالب، حسين، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ص: ١٨١ – ١٨٢.

(٤) ينظر: عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ص: ١٦٢.

ثالثاً: الرسائل الأدبية

وهي رسالة يكتبها شخص ما في موضوع ما، لا تطول لتصبح كتاباً كبيراً، بل هي تشبه المقالة أو البحث القصير ، وكانت الرسائل الأدبية في أول أمرها، تشبه ما يدور من المراسلات العادية بين شخصين، ثم تطور المعنى مع الزمان، فصارت تشتمل القطع الأدبية المكتوبة لغرض خاص، كرسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب، والرسالة العذراء لابن المدبر، ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ[1]. والترسل الديواني لا يلتقي مع المقالة الحديثة،بينما الترسل الأدبي القديم يلتقي مع المقالة الحديثة في نقطة واحدة، وهي حرية الكاتب أن يكتب ما يشاء[2].

ويتميز الأسلوب في الرسائل الأدبية بحسن اختيار الألفاظ، وبراعة أداء المعاني، مع جودة في سبك الجمل، ووضوح في الهدف، مع زخرفة بديعية، وغيرها من التشبيهات، والخيال الواسع.

وتلتقي الرسالة الأدبية مع الرسالة الإخوانية في كثير من الموضوعات والأغراض، حتى عدّها البعض جزءاً من الرسائل الإخوانية.

---

(١) مهنا، د. علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ص: ٢٢٢.

(٢) المقدسي، أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها، دار العلم للملايين، المقالة قديماً وحديثاً، ط ٤، ١٩٨٤م، ص: ٢٢٥ – ٢٢٦.

وهذا النوع أشد تمثلاً لمفهوم فنية الرسالة مـــن اللونـــين الســـابقين لنضجها الفني، ومن الأشكال التعبيرية التي تلبستها الرسائل الأدبية، المنـاظرة، والمفاخرة، والمحاورة، والمفاضلة، والمساجلة وغيرها[1].

---

(١) الدروبي، د. محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباســـي، دار الفكـــر، ط ١، ١٩٩٩م، ص: ٨ – ٩.

الفصل الثاني

ـد الحميـد الكـاتب: نسبه، حياته، أخلاقه، ثقافته

ـسل عبد الحميد الكاتب: - مميزات ترسله

- ترسل عبد الحميد الكاتب في ميزان النقد

- مع نماذج من ترسله

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد[1] (وقيل: سعيد[2])، وأضاف المسعودي[3] بعد سعد فقال: بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب، ولكنني أرى أن هذه الرواية ربما اختلطت الأسماء فيها بنسب مولاه العلاء، وهو مولى العلاء بن وهب العامري القرشي، نسبة إلى عامر بن لؤي بن غالب[4]، ولؤي ينتهي إليه شرف قريش، ويكنى بأبي غالب، (وقيل: كنيته: أبو يحيى)[5].

---

(١) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص: ٢٥.

- المسعودي، علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م، ص: ٢٨٤.

- المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٣، ط ٣، ١٩٥٣م، ص: ٢٦٣.

- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٦، ص: ١٠٦.

(٢) الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، ج ١، ص: ١١٨.

- خفاجي، محمد عبد المنعم، أعلام الأدب في عصر بني أمية، رابطة الأدب الحديث، ج ٢، ط ١، ١٩٥٤م، ص: ١١٦.

(٣) المسعودي، علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م، ص: ٢٨٤، وأورد هذه الرواية: محمد كرد علي في كتابه أمراء البيان، ص: ٤١.

(٤) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج ٦، ص: ١٠٦.

- الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، ط ١، ١٩٨٦م، ص: ٣٧٦.

- عطا الله، رشيد يوسف (سارفيم فيكتور)، تاريخ الآداب العربية، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٥م، مجلد ١، ص: ٣٥٨.

(٥) عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٤٧، نقلاً عن تاريخ الذهبي ٥ : ٢٧٠.

وهو من الموالي فارسي من أصل غير عربي[1]، فقد قيل إن جده من سبي القادسية[2]، انضم إلى عامر بن لؤي بالحلف والمولاة وانتسب إليه.

ومنهم من يعتبره بأنه عراقي، نشأ بالأنبار[3] وسكن الرقة[4]، وقيل: هو شامي من أهل الشام[5]، وورد أن أصله من قيسارية[6] بالشام، ولد سنة (٨٠ أو ٨١ هـ)[7]؛ ويرى بعضهم أنه ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك ما بين (٨٦ و ٩٦ هـ) في دمشق أو قريباً منها[8]، قتل في بوصير من

---

(١) ورد أنه عربي جوال: ينظر: م.ت هوتسما ت.و. أرخولد، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ص: ٧١١٩.

وينظر: عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى ولي العهد .. للمستشرقة هانيلورة شوينغ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد: ٦٠، ج ٤، ١٩٨٥م، ص: ٧٧٠.

(٢) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤١.

(٣) الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، ج ١، ص: ١١٨.

- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨، ص: ١١٣ / ٤٧٣.

- الأثرى، محمد بهجة، المدخل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة الجزيرة، بغداد، ص: ٢٠٨.

(٤) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٣.

- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٣٠.

(٥) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، ص: ٣٣٥.

- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج ٦، ص: ١٠٦.

* وأنا أميل إلى رأي عمر فروخ في قوله بأنه: ولد في مدينة الأنبار ثم انتقل به أهله إلى الرقة، وكانت نشأته بالشام، عمر فروخ من كتابه تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص: ٥٦٩.

(٦) غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، م ٢، ص: ١١٨١.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج ٤، ص: ٦١.

*وأورد عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ج ٦، ص: ١٠٦، أن اصله من قيسارة أقول: ولعلها قيسارية في فلسطين.

(٧) عياد، محمد كامل، مجلة مجمع اللغة العربية،بدمشق، مجلد ٦٠، ج ٤، ص: ٧٧٠.

(٨) خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر بني أمية، ط ٢، ص: ٢٨٣.

أرض الفيوم بمصر سنة (١٣٢ هـ)[١] إثر مقتل الخليفة مروان بن محمد على يد السفاح العباسي[٢].

وقيل: سلم السفاح عبد الحميد الكاتب إلى صاحب شرطته،[٣] فكان يحمي له طستاً بالنار، ويضعه على رأسه حتى مات، وروي أنه عثر عليه مختبئاً عند صديقه ابن المقفع بعد مقتل الخليفة مروان بن محمد، حيث أُخذ إلى السفاح، وقتله في نفس سنة مقتل مروان بن محمد[٤]، وله سبعون سنة[٥]، وله عدة أولاد منهم: (يحيى) وربما كان هذا أول مولود له، وله ابن يسمى (إسماعيل)[٦]، ولعل ما يدلنا على أنه قتل بمصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم[٧]، ويقول المسعودي: ورأيت له عقباً بفسطاط مصر يعرفون ببني مهاجر، وقد كان منهم عدة يكتبون لآل طولون[٨]، وقد امتهن

---

(١) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج ٦، ص: ١٠٦.
- ابن خلكان، أبو العباس، احمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٩.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج ٤، ص: ٦٠ – ٦١.
- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١١٤.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ص: ٥٥٩.
- علي محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٧ – ٤٨.

(٢) الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ج ١، ص: ١١٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٣٠.

(٤) الإسكندري، أحمد، الوسيط في الأدب العربي، مطبعة المعارف، ص: ١٣٣.

(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص: ٢٨٤.

(٦) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٤٧.

(٧) ضيف، د. شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ط ٤، ص: ٤٧٣ – ٤٧٤.

(٨) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص: ٢٨٣.

* وروي أنه عند وفاته كان أهله بالحمراء على مقربة الرقة، ينظر: عباس ، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، دار الشروق، ص: ٤١.

حرفة التعليم[1]، فلم يستقر في بلد، وعاش متنقلاً، وإن كان هناك من يـرى أن التنقل لا يتفق وحرفة التعليم، التي تتطلب الاستقرار، فربما كان مؤدباً[2]، وأنا أرى من خلال دراستي لسيرته، أنه على الأغلب قــد عمــل معلمــاً في بداية حياته، وعندما اشتهر عمل مؤدباً، إلى أن عمل في ديوان الرسـائل، ولقب بعبد الحميد الكاتب، والأكبر،[3] تقديراً وتعظيماً لشــأنه في بـاب الكتابة والترسل.

ومنهم من جعله الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل[4]، وقـال عنه علي شلق في كتابه (نقاط التطور في الأدب العربي): لقد عُـدّ عبـد الحميد أول كاتب إنشائي في الإسلام[5]، وكان رئيس ديوان الرســائل في عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي، بعد أن تتلمذ عبد الحميد على يـد أبي العلاء سالم بن عبد الله، مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، حيث كان سـالم

(١) ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب، ضبطه وشرحه، يوسف علي طويل، الفهرست، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦، ص: ١٨٨.
- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ص: ١١٨.
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مطبعة الاعتماد، ط ٥، ص: ٩٢.
- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص: ٣٣٥.
- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٨، ص: ١١٣.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.
(٢) عباس، حسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٢٦.
(٣) خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية، ط ٢، ص: ٢٨٣.
- عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٢٦.
- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٣.
(٤) الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ص: ١١٩.
(٥) شلق، علي، نقاط التطور في الأدب العربي، دار القلم، ط ١، ١٩٧٥م، ص: ٣٧١.

ختن عبد الحميد، وهذا يعني أنه كان والد زوجة عبد الحميد أو أخاها[1].

ولقد اتصف عبد الحميد الكاتب بأخلاق حميدة كثيرة، رأيت أهمها الوفاء؛ لأنه أهم خلق تناقلته المصادر الأدبية والتاريخية، والذي تجلى في مواقف مختلفة منها:

١- **وفاؤه مع مروان بن محمد الخليفة الأموي**: وذلك أن مروان ابن محمد، قال لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه[2]: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمتي بعد مماتي، فقال عبد الحميد: إن الذي أمرت به أنفع الأشياء لك، وأقبحها بي، وما عندي غير الصبر معك، حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك،

---

(١) عباس، د. إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٢٨.
ينظر: علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٤.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص: ٥٥٩.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، تحقيق محمد سعيد العريان، العقد الفريد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ج ١، ط ٢، ١٩٥٣م، ص: ٥٨.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٩.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٦، ص: ١٠٦.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج ٤، ص: ٦١.
- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ج ١، ص: ١١٩.
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مطبعة الاعتماد، ط ٥، ١٩٣٠م، ص: ٩٣.
- عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٤٢.
- ابن قتيبة، مسلم الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، مجلد ١، ص: ٢٦ – ٢٧.
- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب، ج ٣، ط ٢، ص: ٢٦٣.

وأنشأ يقول:

أسير وفـــــاءً ثم أظـــهر غـــدرةً   فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

فلم يقبل عبد الحميد بما عرضه عليه مروان بن محمد، وبقي معــه إلى أن قتلا معاً في بوصير بمصر.

٢- **وفاؤه مع صديقه ابن المقفع:** روي أن عبد الحميد بقي مع مـــروان ابن محمد حتى قتل مروان بمصر، "فلجأ عبد الحميد إلى صديقه ابـــن المقفع بالبحرين، ففاجأه الطلب وهو في بيته، فقال الذيـــن دخلـــوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا، مخافة على صاحبه، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبـــد الحميـــد قائلاً: ترفقوا بنا! فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم، وليمض البعض الآخر إلى من وجّهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا واخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـــ"[١]، ولكنني أرى أن الرواية الأولى، والتي تقول بأن عبد الحميد قتل مع مروان بن محمد في بوصير، هـــي الأصح لأنها أقرب إلى المنطق، وأكثر المصادر والمراجع والدارســـين يميلون إلى هذا الرأي، ولا يعقل أنه تخلف عن سيده مروان بن محمـــد في الجزيرة، والأرجح أنه قتل في مصر على رواية المسعودي[٢] كمـــا أشرت.

---

(١) الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مطبعة الاعتماد، ص: ٩٣.
- م.ت، هوتسي، ت.و ارنولد، دائرة المعارف الإسلامية، ص: ٧١١٩.
- شمس الدين، د. عبد الأمير، الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ عبد الحميد الكـــاتب، الشركة العالمية للكتاب، ص: ٢٥.
- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٧ – ٤٨.

(٢) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٨.
- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٨، دار المعارف، ص: ١١٤.

ومن خلال الموقفين السابقين، يتبين لنا عظم خلق الوفاء الذي تحلى به عبد الحميد، فهو يرفض في الموقف الأول أن يظهر الغدر بأمير المؤمنين، مروان بن محمد، الذي صاحبه منذ كان مروان والياً على أرمينيا وحتى مقتله، ويفضل أن يبقى معه ويلازمه، ولو أدى ذلك إلى الهلاك؛ وفاء منه لحسن الصحبة، رغم أن مروان طلب منه ذلك، ونراه أيضاً مع صديقه ابن المقفع – إن صحت الرواية على اختباء عبد الحميد عنده – تدل أيضاً على عظم هذا الخلق، وإن حاول ابن المقفع أن يفدي صديقه عبد الحميد بنفسه، لكن عبد الحميد يرفض ذلك ويقدم نفسه ليد الجلاد، وخلق الوفاء هو ما حاول عبد الحميد أن يسطره في ترسله، في رسالته إلى الكُتّاب وغيرها كرسالته إلى صديق له جواباً عن سؤال له[1].

٣- **أما الموقف الثالث الذي يدل على الوفاء عند عبد الحميد، فهو موقفه مع دابته**، "قال له مروان مرة: وأشار إلى دابة كان يركبها عبد الحميد منذ مدة طويلة، قد طالت صحبة هذه الدابة لك، فأجابه بقوله: يا أمير المؤمنين إن من بركة الدابة طول صحبتها ... وعندما أثنى عليها بقوله: "همها أمامها وسوطها عنانها وما ضربت قط إلا ظلماً"[2].

فوفاء عبد الحميد لم يكن مقصوراً على العلاقة بينه وبين مروان ابن محمد وابن المقفع، أو بينه وبين زملائه الكُتّاب، بل كان صفة عامة، تنتظم علاقته بكل من توثقت بينه وبينهم عرى المحبة والإخاء، حتى استحق أن يضرب به المثل في الوفاء[3]، ونستطيع أن نسجل له

---

(١) البستاني، بطرس، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار صادر، ط ٨، ١٩٦٢م، ص: ٤٠٧ – ٤٠٩. * من هذه الرسالة قوله: "لا يدخل على صاحبه سآمة، ولا ضعف عند عوارض الأقدار وحوادث الزمان، بل يواسي في الأزمات مقتحماً غمرات المهالك".

(٢) عباس، د. إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٥١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٢.

أخلاقاً أخرى كالتواضع والحلم واللين[1]، "إذ المنـــزلة الرفيعـــة لم تطغه أبداً، وظل تواضعه مفتاح شخصيته على مر الزمـــن[2]، وقـــد اتصف أيضاً بنبل العاطفة، وكان أديباً، وراويةً، وخطيباً، ومترســـلاً، وشجاعاً[3].

وربما نستدل من رسائله على رجاحـــة عقلـــه، وبعـــد نظـــره في السياسة، ونستدل كذلك على نفس حساســـة، وعاطفـــة رقيقـــة، وأخلاق كريمة[4].

وهكذا نرى أن عبد الحميد الكاتب قد اتصف بكـــريم الأخـــلاق، ونبيل المشاعر، التي تعتبر مكملة لشخصيته الأدبية.

ولعبد الحميد الكاتب ثقافة عالية ومرموقة، وقـــد نبعـــت مـــن مصدرين اثنين، فغدت نوعين هما: نوع ذاتي، ونوع خارجي.

أما الذاتي فهو ما تعهد به عبد الحميد نفسه، من ثقافـــة علميـــة ودينية وتاريخية، حيث تفقه في كتاب الله والفرائض، وأتقن العربية، وجـــوّد خطه، وروى الأشعار، وغريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجـــم، وأتقـــن الحساب[5].

أما الخارجي فهو ما تتلمذ به على غيره، وتتبع آثارهم الأدبيـــة، وأتقنها ودرسها، وهم:

- **الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه** : فلقد أفاد عبد الحميد كثـيراً من بلاغة سيدنا علي كرم الله وجهه، إذ كانت خطبه أساساً هامـــاً في

---

(١) (٢) عباس، د. إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٥٤ – ٥٥.

(٣) العزيزي، المنهل في تاريخ الأدب العـــربي، المطبعـــة التجاريـــة، القـــدس، ط ١، ١٩٥٦م، ص: ١٥٤.

(٤) مردم بك، خليل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١٤، ص: ٤٠٠.

(٥) ينظر: عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٥٥.

ثقافة عبد الحميد وفي توجيه أسلوبه[1]، وعندما سئل عبد الحميد ما الذي خرّجك في البلاغة؟ قال: حفظ كلام الأصلع[2] (يعني علـــي بـــن أبي طالب).

❖ أما الشخصية الثانية التي تأثر بها تأثراً مباشراً فهي **شخصية أبي العـــلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه**: فلقد اطلع عبد الحميد على مـــا ترجمه سالم من الكتابات اليونانية، وأفاد من طريقة سالم في الكتابـــة[3] إفادة كبيرة أثرت في ترسله وحياته الكتابية.

إذن ... كما اطلع عبد الحميد على الكثير مـــن الآثـــار الفارســـية واليونانية، بعد أن تُرجمت على يد **ابن المقفع** صديقه، وإن عبد الحميد على أغلب الظن لم يكن على معرفة مباشرة باللغة الفارسية واليونانية، وكل ما في الأمر "أن عبد الحميد عـــرف مترجمـــات يونانيـــة عـــن طريـــق ســـالم، ومترجمات فارسية عن طريق ابن المقفع، وليس ثمة ما يثبت أنه كان مطلعـــاً على الثقافتين في لغتيهما أو على إحداهما[4]، وإن كـــان البعـــض يرجـــح أنه كان يعرف اليونانية والفارسية إلى جانب ثقافته العربية[5].

إذن ... ولقد أفاد عبد الحميد عن طريق الملازمة والمصاحبـــة مـــن **مروان بن محمد** بإحاطته بالقواعد العسكرية والبلاغة، حيث يقول عبـــد

(١) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٥٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٥.

(٣) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٥٥ — ٥٦.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٦.

(٥) ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر بني أميـــة، دار الكتـــاب اللبنـــاني، ص: ٢٨٤ — ٢٨٥.

الحميد "تعلمت البلاغة من مروان بن محمد"[1]، وهكذا فـــهؤلاء الأربعــة (سيدنا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وابن المقفع، وسالم بن عبد الله ومروان بن محمد)، هم أهم من تتلمذ عليهم عبد الحميد، حتى وصل إلى مـا وصل إليه من مرتبته العالية في الترسل، بالإضافة إلى ثقافته العلمية والأدبيـــة والدينية الخاصة التي اكتسبها بنفسه.

(١) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٥٧.

ترسل عبد الحميد الكاتب

ادعى الدكتور طه حسين في كتابيه (من تاريخ الأدب العربي)، و (من حديث الشعر والنثر)، أن فن الترسل الذي اتصف به عبد الحميد الكاتب لم يكن من جهده الشخصي، وإنما كان ناتجاً عن معرفته بالثقافة اليونانية، واعتمد في رأيه هذا على رسالة عبد الحميد الكاتب، لولي عهد الخليفة مروان بن محمد، التي ذكر فيها تقسيم الجيش إلى وحدات، كل وحدة منه على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونانيين، وكذلك تقسيم الكلام في ترسله، والذي يعتبر من خصائص النثر اليوناني القديم، بالإضافة إلى مبالغة عبد الحميد الكاتب في استخدام الحال في كلامه وترسله[1].

ولكنني أرى أن رأي الدكتور طه حسين مبالغ فيه، فإن وجد تأثر فهو تأثر بسيط، لا يرقى إلى الجوانب الفنية العالية التي اتصف بها عبد الحميد الكاتب، فعبد الحميد الكاتب عاش في الشام وكان على صلة بنظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس، ورافق عبد الحميد مروان بن محمد في تحركاته العسكرية، مما أكسبه معرفة بالقواعد العسكرية والتشكيلات الخاصة بالجنود، أما استخدام عبد الحميد للحال فلم يوضح الدكتور طه حسين كيف كانت هذه الخاصية هي من خصائص اليونانية، والمعروف أنها من خصائص اللغة العربية، وهي موجودة في الأشعار الجاهلية والقرآن الكريم وغير ذلك، وأرى أيضاً أن صلة عبد الحميد بالثقافة اليونانية، كانت صلة غير مباشرة، عن

---

(١) عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى ولي العهد عبد الله، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، ج ٤، ص: ٧٧٤.

- حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٦م، ج ٢، ص: ٤٤٣.
- حسين، طه، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، ص: ٤٢ — ٤٥.

طريق سالم مولى هشام عبد الملك، وكذلك كانت صلته بالثقافة الفارسية صلة غير مباشرة عن طريق ابن المقفع، وكان يضيف إلى ذلك ثقافته الواسعة بالشعر العربي، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس، وزهير، أو ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين، والذي وضح ذلك في رسالته إلى ولي العهد[1].

ويضيف عبد الحكيم بلبع مدعماً لما ذهبت إليه: "إن عبد الحميد لم يعرف عنه أنه قد عرف شيئاً عن اليونانية، واعتقد أن التأثر بلغة ما لا يتأتى إلا بإجادة هذه اللغة"[2]، واستخدام عبد الحميد للوصف بالحال، يعني أن عبد الحميد كان وصّافاً في كتابته، وأنه كان يؤثر الوصف؛ لما رأى أنها تحقق له الإيقاع الصوتي الذي كان يقصد إليه في عامة أسلوبه[3].

ويجدر بي أن أشير في معرض هذا الحديث، إلى أن بعض الأدباء والباحثين يرون أن النثر الفني عربي النشأة، وأنه كان معروفاً قبل عبد الحميد الكاتب، وأن العرب كتبوا رسائل فنية قبل رسائل عبد الحميد، وأن النثر العربي تطور وترقى على ألسنة العرب الذين أملْوْا (من الخلفاء والأمراء ...)، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا (كعبد الحميد الكاتب وابن العميد ..)، وأنه شارف على النضج عند قرب نهاية الخلافة الأموية على يد عبد الحميد، أول كاتب في الديوان الأموي اشتهر بكتابته، وذاع صيته،

---

(١) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، ط ٤، ص: ٤٧٧ – ٤٧٨.

(٢) بلبع، عبد الحكيم، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة الأنجلو المصرية، ص: ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص: ١٢٩.

* يؤكد خليل مردم بك أن عبد الحميد كان يعرف الفارسية، ينظر: مردم بك، خليل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١٤، ص: ٣٩٦.

حيث حمل راية الابتكار، حتى صار نثره أول نثر فني ممتع له قيمته[1]، ولهذا يقول الدكتور أحمد محمد الحوفي: "إن النثر الفني في أدبنا العربي لم يكن يوناني النشأة ولا فارسي المولد، وإنما نشأ عربياً خالص العروبة كما نشأ الشعر، وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال"[2].

ونظراً للمكانة العالية التي وصل إليها عبد الحميد الكاتب، فقد أعجب به الكثير من عامة الناس وخاصتهم، حتى جعلهم يكثرون من الحديث عن شهرته، والإعجاب بترسله. ويقول الثعالبي في يتيمة الدهر، جملة تناقلها الأدباء والدارسون عبر الأجيال الأدبية المختلفة، وهذه الجملة تقول: "بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"[3]، ولقب عبد الحميد بالكاتب تعظيماً لشأنه، واتفق الجميع على أنه زعيم الكتابة، لأنه أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد { كالإطناب، والتحميد، والمنطقية في العرض، وقواعد المطلع والختام ... }، وصار إمام هذه الصناعة[4]، والحق" أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تكتب في موضوعات مختلفة[5]، فهو زعيم الأدب الرسمي، وإليه يرجع الفضل في جعل أسلوب الكتابة في الدولة أسلوباً أدبياً عالياً[6].

(١) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٣، ص: ٤٥٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الثعالبي، عبد الملك، يتيمة الدهر، شرح وتحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ط ١، ١٩٨٣م، ص: ١٨٣.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨، ورد عنده فتحت بدل كلمة بدئت.

(٤) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، ص: ٣٣٤.

(٥) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ط ٤، ص: ٤٧٨.

(٦) مردم بك، خليل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١٤، ص: ٣٩٥.

وهو الكاتب البليغ المشهور، وبه يضرب المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، ولآثاره اقتفوا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل[1]، وعن استخدامه للتحميدات يقول ابن خلكان: "وهو أول من أطال التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل ذلك بعده[2]، وهو شيخ الكتاب الأوائل، وهو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل، وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجز عنه السحر في خلب الأفئدة وجذب النفوس"[3].

وقد استحق عبد الحميد الكاتب لقب شيخ الصناعة، وأستاذ كل كاتب، "فقد كان يجيد الإيجاز كما يجيد الإطناب، ويتخير من الألفاظ أنصعها وضوحاً، وأجزلها معنى، وأدقها كتابة، وأقواها حجة، وأنسقها ترتيباً"[4]، وبذلك عدّ عبد الحميد أول كاتب إنشائي في الإسلام[5]، فغدا إنشاؤه نمطاً جديداً انتقل بالإنشاء العربي من طور الأسلوب الطبيعي الساذج إلى طور الأسلوب الطبيعي الفني[6].

وقيل إن عبد الحميد الكاتب كان رائداً، سبق أنموذج الأديب في القرن الثالث الهجري الذي كان يمثله احسن تمثيل[7]، أما إبراهيم بن عباس[8]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

- ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب، الفهرست، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٩م، ص: ١١٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

(٣) الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ج ١، ص: ١١٨ – ١١٩.

(٤) أمين، أحمد، (وزملاؤه)، المفصل في تاريخ الأدب العربي، وزارة المعارف المصرية، ص: ١٦٣.

(٥) شلق، علي، نقاط التطور في الأدب العربي، ص: ٣٧١.

(٦) الأثرى، محمد بهجة، المدخل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة الجزيرة ببغداد، ص: ٢٠٩.

(٧) عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي العهد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٤، مجلد ٦، ص: ٧٧٧.

(٨) هو إبراهيم بن العباس الصولي، ولد سنة ١٧٦هـ وتوفي سنة ٢٤٣ هـ، كاتب العراق في عصره، أصله من خراسان، نشأ في بغداد، كان كاتب المعتصم والواثق المتوكل، له ديوان شعر، وديوان رسائل.

فقد قال عنه: "ما تمنيت كلام أحد أن يكون لي إلا كلام عبد الحميد، حيث يقول في رسالته: الناس أصناف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم عِلْقُ مَضِنَّة لا يباع، ومنهم غُلّ مظِنة لا يبتاع"[1].

والحق أنه صاحب ابتداع في الكتابة، وصاحب طريقة خاصة به، "حتى ليصح أن يقال إنه الكاتب الأول الذي تم تطور النثر الفني على قلمه"[2].

وكان عبد الحميد الكاتب رأس المدرسة الفنية في الكتابة العربية[3]، ولهذا بايع النقاد ومؤرخو الأدب عبد الحميد أميراً على عرش الكتابة العربية[4].

فقد جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد[5].

ونتلمس ملامح الشخصية الأدبية الرائعة التي يمثلها عبد الحميد، تلك الشخصية التي أذابت الشعر في كؤوس النثر، وصهرت الفن الشعري في بوتقة الكتابة الفنية[6].

---

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتّاب، حققه: مصطفى السقا وزميلاه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ١، ص: ٨٢، علق مضنه: شيء نفيس يضن به.

(٢) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: ٥٦٣.

(٣) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، ط ١، ١٩٨٦م، ص: ٣٧٦.

(٤) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٧٤م، ص: ٢٢٥.

(٥) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٩.

(٦) منصور، د. سعيد، الفن الشعري في نثر عبد الحميد فكر ونغم، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م، ص: ٥.

هذه كلمات خلدت ذكرى رجل يستحق الخلود في ميـــدان الأدب العربي، ذلك الرجل الذي تربع على عرش الكتابة الفنية والترســـل العـــربي، عرش لم يجلس عليه رجل مثله، أو حتى يدانيه في علمه وكتابته وترسله.

من تلك الكلمات نلحظ تلك المكانة التي صعد إليها عبد الحميـــد، ولو لم يتجمع لديه من الخصائص والصفات، مما جعل أسلوبه الترسلي فريـداً من نوعه، لم يصل إلى حدّ الإجماع الذي صدر من النقاد والأدباء والبـاحثين عبر عصور الأدب المختلفة، حول رفعة مكانة عبد الحميد وشهرته.

وإذا كان عبد الحميد الكاتب تفنن في الترسل، وسار به إلى شـــاطئ الكتابة الفنية المميزة، وكان لا يعجزه معنى من أن يســـتخدم لـــه اللفـــظ المناسب، فإنه لحري بي أن أسجل له بعض الأقوال المأثورة، والـــتي ســـرت كالأمثال لبلاغتها، ودقة معناها، فمنها قوله: "القلم شجرة ثمرتها الألفـــاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة"[1]، وعن بلاغة الكتاب يقول: "لو كان الوحـــي ينـــزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب"[2]، ويعرف البلاغة فيقول: "هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة"[3]، ويذكر خير الكلام فيقول: "خـــير الكلام ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً"[4]، وعن مكانة الكتّاب في المجتمـع يقول: "أكرموا الكتّاب فإن الله عز وجـــل أجـــرى أرزاق العبـــاد علـــى أيديهم"[5].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

أما الثعالبي فيقول: القلم شجرة ثمرتها المعاني ... الثعالبي، أبو منصور، الإعجـــاز والإيجـــاز، مكتبة دار البيان، بغداد، ص: ١١١.

(٢) (٣) (٤) الثعالبي، أبو منصور، الإعجاز والإيجاز، ص: ١١١.

(٥) الجهشياري، محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتاب، ط ١، ص: ٨٠.

حتى الشعر فقد وجدت لعبد الحميد نظماً يقول فيه[1]:

ترحّـــلَ مـــا ليـــس بالقـــافِلِ وأعقـــب مـــا ليـــس بـــالزائلِ
فويلي مـــن الخَلَـــف النـــازلِ! ولـــهْفي على السلف الراحـــلِ
أُبكيٍّ علـــى ذا وأبْكِـــي لـــذا بكـــاء المولّهـــــة الشـــاكِلِ
تُبَكّى مـــن ابـــن لهـــا قـــاطع وتَبْكي على ابـــن لهـــا واصـــلِ

من خلال هذه الكلمات نستشف الكثير من أخلاق عبـــد الحميـــد الفنية والشخصية، فهو رجل لسانه ينطق حكمة، وقلمه يخط بلاغة وعلمـــاً وأدباً، كل ذلك بثوب من الأخلاق الإسلامية الحميدة، التي كان يتصف بهـا عبد الحميد ويتمثلها .. فلقد كان القلم رمز حياته ووجوده، يبث من خلاله ما يريد، لمن يريد، وكيف يريد.

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتاب، ط ١، ص: ٨١.

خصائص أسلوب فن الترسل

عند عبد الحميد الكاتب[1]

إن المكانة العالية التي وصل إليها ترسل عبد الحميد الكاتب لم تكن عبثاً، ولم تكن من فراغ، فقد اتصف فنه بميزات كثيرة منها: أنه كان يجمع في ترسله بين الإيجاز والإطناب، وكان يجيد كلاً منهما ويستخدمه في الوقت المناسب، وإن كان للإطناب أكثر ميلاً، وبالنسبة للألفاظ فقد تخير أكثرها وضوحاً، وأجزلها معنى، وأدقها كتابة، وأقواها حجة، وأنسقها ترتيباً، ولاعتنائه باللفظ كان يبدو كلامه جزلاً رصيناً متين البناء، يراعي ما يقتضيه المقام وما تتطلبه المناسبة، وغلب عليه التفكير المنطقي الذي تجلى في حسن تقسيم رسائله وترتيب أفكاره، وكان يهتم ببسط الأفكار وتوليد المعاني أو

---

(١) العزيزي، المنهل في تاريخ الأدب العربي، المطبعة التجارية، ط ١، ص: ١٥٥.
- الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، مجلد ٤، عدد ٣، ص: ٣٣.
- أمين، أحمد، (وزملاؤه) المفصل في تاريخ الأدب العربي، ص: ١٦٣.
- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ج ١، ص: ١١٩.
- غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، مجلد ٢، ص: ١١٨١.
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص: ٩٤.
- مردم بك، خليل، عبد الحميد الكاتب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١٤، ص: ٣٩٥ – ٤٠٠.
- عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد إلى ولي العهد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، ج ٤، ص: ٧٧٣ – ٧٧٧.
- الأثرى، محمد بهجة، المدخل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة الجزيرة ببغداد، ص: ٢٠٩.
- بلبع، عبد الحكيم، النثر الفني واثر الجاحظ فيه، ص: ١٢٧ – ١٣٠.
- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي،ص: ٣٣٤ – ٣٣٧.
- الحوفي، أحمد محمد،لا أدب السياسة في العصر الإسلامي، ص: ٥٦٣ – ٥٧٠.
- حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب، المطبعة الفنية الحديثة، ص: ١٤٣ – ١٤٦.
- خفاجي، محمد عبد المنعم، أعلام الأدب في عصر بني أمية، ج ٢، ص: ١١٨.

توكيدها بالترادف، مع دقة في تصوير المعاني وتحليلها، و جنوح إلى الخيـــال أحياناً، وكان يفصل الجمل ويقطعها متساوية الطول، أو متساوية القصـــر، ويزينها بقليل من السجع، وتأنق في البدء والختام، وتنويعهما حسب المقـــام، فابتكر كثيراً من صور البدء والختام، وتعدد التحميدات والإطالـــة فيـــها، وإطالته في الرسائل كانت تشمل الرسائل السلطانية والإخوانيـــة والفنيـــة، واهتم عبد الحميد الكاتب بالتوضيح والتفصيل، حيث كان يهتم بالجزئيات، ويورد الأسباب وما يترتب عنها، وراعى التنغيمات الصوتيـــة في الازدواج والسجع والتوازن، فكان كثير الوصف بالحال، فهو يحقق له الإيقاع الصـــوتي الذي كان يقصد إليه في عامة أسلوبه، واستخدم عبد الحميـــد المحسـنات اللفظية، كالتضاد والطباق والمقابلة والاستعارة والتشبيه والمجاز، والـــترصيع الذي يرافق السجع أحياناً، كما استخدم التمييز، وله مـــهارة في اســـتخدام الروابط الكلامية، كأحرف العطف والجر وغيرها، وبشكل عام كان أسلوب عبد الحميد الكاتب عذب المورد، صافي الديباجة، يصبي المشـــاعر، ويفعـــل بالألباب فعل السحر، حتى أن أبا مسلم الخراساني، أبى قراءة رســـالة عبـــد الحميد له، والتي يستميله فيها إلى صف مروان بن محمد، وأحرقها إشـــفاقاً على نفسه من تأثيرها، وكتب على جذاذة منها:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحـى   عليك ليوث الغاب من كل جانب

وعند تفحص المراجع السابقة وغيرها – خاصة كتاب عبد الحميـــد ابن يحيى الكاتب للدكتور إحسان عباس، وأدباء العرب لبطـــرس البســـتاني وغيرهما، وجدت أن الجوانب الفنية في الكتابة الإنشائية والنثر الديواني تـــأخر ظهورها؛ لأن الكاتب حتى مجيء سالم مولى هشام بن عبد الملـــك وعبـــد الحميد الكاتب، كان مجرد أداة، يكتب ما يملى عليه، أو ينسق ما يطرح عليه من أفكار أو معان، دون أن يظهر للكاتب شخصيته، ولذلك بقـــي مجـــال

التدخل من الكاتب، والإبداع وإظهار التأثير والخصائص الفنية ضعيفاً، إن لم يكن نادراً.

ولقد ظهر الكثير من الكتّاب للخلفاء والأمراء والـــولاة، ولكـــن لم يسجل لنا التاريخ الأدبي أحداً منهم، بأن له مكانة فنية في باب الترســـل، إلا عندما ظهر سالم وعبد الحميد وابن المقفع وغيلان الدمشقي[1]، وجميعهم من غير العرب، تعلموا العربية بعد فترة تعريب الدواوين، وتفوقوا على العرب في إتقان العربية، وأصبحت لهم الصدارة في فن الترسل، وإن تـــأثروا بالثقافـــة اليونانية أو الفارسية بشكل مباشر[2]، أو غير مباشر[3]، بالإضافة إلى الملكـــة الفردية، والموهبة الذاتية التي تمتع بها هؤلاء، كل ذلك جعلت مـــن هـــؤلاء الأربعة مترسلين لهم موقعهم في الترسل الفني.

ولقد بزغ نجم سالم كعلامة متميزة في بواكير النثر الفـــني العـــربي، ولكن هذا النجم أفل أمام شمس عبد الحميد الكاتب، الذي استطاع أن ينوع في الموضوعات التي يطرقها ويحكم أسلوبها، بعد أن لم يستطع سالم ذلـــك، حتى أصبح عبد الحميد مضرب المثل، وأصبح النموذج الأعلى والأول في فـــن الترسل، وإن جاء بعده مَن أصبحت لهم شهرة لا بأس بها، كـــابن المقفـــع والجاحظ وسهل بن هارون وعلي بن عبيدة وآخرون، حيث أفادوا من نـــثر عبد الحميد الكاتب وأسلوبه الفني، الذي يرجع له الفضل الأكبر في رفع النثر إلى مستوى فني راقٍ.

---

(١) غيلان الدمشقي: هو غيلان بن مسلم الدمشقي (أبو مروان) كاتب من البلغاء، له رســـائل، قال ابن النديم: إنها في نحو ألفي ورقة، أفتى الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشـــق، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية.

ينظر - الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط ٣، ج ٥، ص: ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) بشكل مباشر: تأثر سالم مولى هشام بما ترجمه أو ترجـــم لـــه عـــن اليونانيـــة ككتابـــات ارسطوطاليس، وكذلك تأثر ابن المقفع بما ترجمه أو ترجم لـــه عـــن الفارســـية ككتابـــات كليلة ودمنة.

(٣) بشكل غير مباشر: أمثال غيلان الدمشقي وعبد الحميد الكاتب.

وعبد الحميد الكاتب أول من أطال في الرسائل، ولكن إطالته كانت بحسب الموضوع، فإذا كان الموضوع يتطلب الإيجاز نراه يوجز.

وأطال في التحميدات كذلك، واستعملها في فصول الكتب، ولكنني أرى أن استخدامه للتحميدات كان في رسائل محدودة، بل أراه في الرسائل المطولة يبدأ رسالته مباشرة بأما بعد، كما في رسالته إلى الكتاب، ورسالته إلى ولي عهد مروان بن محمد وغيرهما، حيث لم يفتتح بالتحميد هذه الرسائل ولا يوجد في فصولها.

ولن يغفل عبد الحميد الكاتب عن الأسلوب القرآني، فقد تفنن في الإفادة من الأسلوب القرآني، وتغشيتها بالملامح الدينية، في التحميدات وفي الأخلاق الإسلامية، وفي الاقتباس من القرآن الكريم، أو في محاكاة الأسلوب القرآني وغير ذلك، مما جعل رسائله تطغى عليها الملامح الدينية الصافية، بعكس كتابات ابن المقفع التي ربما تعكس عقيدته الفاسدة.

وترسل عبد الحميد يخضع لشخصيته بحكم وظيفته، وبحكم طبيعته، فيظهر في ترسله النزعة التنظيمية الرسمية، وإن كان المجال مجال عاطفة وانفعال، كرسالته عندما رزق مولوداً، ورسالته إلى أهله وهو يتوقع النهاية، ولمواجهة النزعة التنظيمية، عمد عبد الحميد إلى الازدواج، الذي قد يحقق التوكيد الأولي بالربط بين جملتين، أو التوكيد المبالغ فيه بالتكثيف، أو التلوين الموسيقي أو غير ذلك، ولقد مرن عبد الحميد على الازدواج حتى أصبح سمة غالبة على أسلوبه، ومن بينها المزدوجات المؤسسة على الحال كقوله: دالاً على المراشد. قائداً لهم إلى الهداية. منيراً لهم أعلام الحق. (في أربعة عشرة جملة)، وهذا ما سيظهر في رسائله المختلفة من هذا الفصل[1].

---

(١) عباس، د. إحسان، عبد الحميد الكاتب ، ص: ١٦٤ – ١٧١.

وكان عبد الحميد يمثل موقف الدولة السياسي والرسمي، سواء أكانت الرسائل رسمية أم غير رسمية، فهو لا يضحك كم لا يضحك الآخـــرون، ولا ينفعل كما ينفعل الآخرون، ولا يبكي كما يبكون، لأنه يمثل رجل الدولـــة الملتزم، الذي يحترم منصبه وموقعه.

وعند عبد الحميد إيجاز، ولكنه للإطناب والإسهاب أكثر انحيـــازاً، وعنده إجمال ولكنه إلى التفصيل أميل، وتقـــل عنـــده الصـــورة الشـــعرية المتلألئة في التشابيه والكتابات والاستعارات، كما يقل عنده الخيال الواســـع البعيد، وتتوافر عنده المنصوبات كالمصادر والمفـــاعيل والحـــال والتميـــيز، ويميل إلى موازنة الجمل، ويؤثر القصـــيرة منـــها، وإن طـــالت لا يســـرف في طولها.

ويعتبر ترسل عبد الحميد على جزالته وشدة أسره، يخلو من التعقيـــد والألفاظ الغريبة، ويتسم بالوضوح والسهولة وان لم يبلغ بهما مبلـــغ ابـــن المقفع.

وربما يكون من سوء حظ عبد الحميد الكاتب، أنه ظهر في مرحلـــة الانهيار السياسي للدولة الأموية، وما صاحب ذلك من فـــتن ومصـــائب، وويلات وحروب وتقتيل، كان عبد الحميد ومولاه مروان بن محمد ضحايـــا ذلك التقتيل.

هذه خلاصة عامة لخصائص فن الترسل عند عبد الحميد الكـــاتب، تلك الخصائص التي جعلت منه واحد زمانه، والتي أدت فيما بعد، لظـــهور قرينه الثاني ابن العميد، بعد نحو قرنين من الزمان، حتى قيل المقولة المشـــهورة: (فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد)، تلك الشخصية الثانيـــة والتي هي نصيف هذه الرسالة، والتي سأتحدث عنها بإســـهاب في الفصـــل الثالث إن شاء الله تعالى.

ترسل عبد الحميد الكاتب

في ميزان النقد

وبعد هذا العرض الذي قدمته للخصائص الفنية لأسلوب عبد الحميد الكاتب في ترسله، سأتعرف لبعض آثاره الأدبية في الترسل، حتى نرى مدى التزامه في تطبيقه للمميزات الفنية لأسلوبه، لذا رأيت أن أسوق أمثلة ونماذج لبعض هذه الآثار الأدبية لتحليلها والنظر فيها.

وسأبدأ هذا العرض بنموذج من ترسله الديواني، وآخر من كتاباته الإخوانية، وثالث من كتاباته الأدبية، ورابع من كتاباته الدينية.

نمـــاذج مـــن ترســـله:

والنموذج الأول هو لرسالة ديوانية، كتبها عبد الحميد الكاتب علـى لسان الخليفة مروان بن محمد، آخر خليفة أموي لولي عهده عبد الله، عندمـا أرسله لقتال الخوارج، بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني.

رسالة عبد الحميد الكاتب، لولي عهد مروان بن محمد عبد الله، الذي ولاه الخليفة قيادة الجيش، لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي:

أهم الأفكار الواردة في الرسالة مع نماذج للتمثيل[1]:

أولاً: القسم الأخلاقي والسياسي:

❖ المقـــدمة:

من: "أما بعد، فإن أمير المؤمنين – عندما اعـــتزم عليـــه، مـــن توجيـــهك إلى عدو الله الجِلف الجافي، الأعرابي المتســـكع في حـــيرة الجهالـــة وظلـــم الفتنة ...".

إلى: "والله يستخلف عليك أمير المؤمنين، ويسأل حياطتك، وأن يعصمك من زيغ الهوى، ويحضرك داعي التوفيق معانا على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين علـى الخير، ولا يوفق إلا هو"[2].

وبعد الاطلاع على هذه المقدمة وجدت أن عبد الحميد بدأ رســـالته بِـــ (أما بعد) دون أن يستفتحها بالتحميد، وتحدث في بدايتها عن قـــرار أمير المؤمنين بتولية ولده قتال الضحاك، ثم بيّن عبد الحميد صفات الضحـــاك بأنه عدو الله، وجلف وجافٍ ومتسكع وجاهل .. بعد ذلك بيّن لولده أنـــه

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج ٢، المكتبة العلميـــة، ص: ٤٠٦ – ٤٥٥، اعتمدت هذا المرجع في التمثيل لترسل عبد الحميد.

* نظراً لطول الرسالة التي تصل إلى أكثر من خمسين صفحة، فإنني لا أستطيع إثباتها جميعـــها، فلذلك اكتفيت بمقتطفات منها.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٠٦ – ٤٠٨.

يقدم له النصح والتوجيه، مع وجود الصفات الصالحة والأخلاق الطيبة فيه، وهذا يظهر حرص الوالد دائماً، على أن يبعد ولده عن كل مكروه ويحصنه من كل آفة في دينه أو خلقه.

ثم ينهي عبد الحميد مقدمته بدعاء إلى الله أن يعصم الأمير ويوفقه إلى كل خير.

وأرى أن عبد الحميد وفق في هذه المقدمة للأسباب التالية:

١- بيان الهدف من الرسالة، وهو التكليف من أمير المؤمنين لولده عبد الله بقتال الضحاك، وأنه هو أهل ثقة أمير المؤمنين.

٢- بيّن عبد الحميد لولي العهد الصفات التي استحق الضحاك أن يقاتل من أجلها، والتي تدل على بعده وانحرافه عن الإسلام.

٣- ويبيّن له أهمية الاتصاف بالآداب والأخلاق الكريمة، والتي يحتاجها كل مسؤول عن رعيته.

ونلاحظ أن أكثر جمل المقدمة انتهت:

بالحال: فساداً، استخفافاً، كفراً، جهلاً ...

أو جار ومجرور: عليه، في الفضل، في العلم، عليك، بأحد ...

أو مضاف ومضاف إليه: شؤونك، أحوالك، لأهل المعرفة، محمود شيمه، هجر سآمته ...

❖ **الحرص على الحكمة وإخلاص تقوى الله والشكر على نعمه:**

قوله: "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمّها سالكاً ..."(١).

وقوله: "واعلم أن احتواءك على ذلك، وسبقك إليه إخلاص تقوى الله في جميع أمورك ..."(٢).

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص: ٤٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٠٩.

وقولـــه: "ثم اجعل لله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه ... شـــكراً علـــى إبلاغه إياك يومك ..."(١).

بعد التقديم بدأ عبد الحميد يسرد لعبد الله بن مروان، أهم الأســـلحة التي عليه أن يتسلح بها كمسلم، وكولي للعهد، وكقائد للجيش، وأهم هـــذه الأسلحة هي: الحكمة، حيث بيّن له أهمية الحرص على اقتناصها، والســـلاح الثاني هو سلاح التقوى، وإعظام ما انعم الله به عليه وشكره.

ولا ينسى عبد الحميد أن يذكره بأهمية تلاوة القرآن الكريم، وبأنـــه شفاء للقلوب ورحمة للمؤمنين، وكأن عبد الحميد لا ينسى نفســـه عندمـــا يكتب رسالته هذه، فشخصية المعلم والمربي تظهر من خلال الصيغ الأمريـــة التي بدأ بها فقرات رسالته وأفكاره.

❖ **مجاهدة أهواء النفس، وكيف يتم ذلك:**

قولـــه: "ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحســـنات، ومفتـــاح السيئات ..."(٢).

وقولـــه: "من ذلك أنك تملك أمورك بالقصد، وتداري جندك بالإحســـان، وتصون سرك بالكتمان، وتداوي حقدك بالإنصاف ..."(٣).

طلب عبد الحميد من ولي العهد وبإصرار أن يخلص نفسه من أهوائـــه الشخصية، وان يبذل قصارى جهده في محاربتها؛ حتى ينقي نفسه من الآفات والمهلكات للدين والخلق.

ثم أخذ يبيّن له كيف يتصدى لكثير من هذه الآفـــات: **فعليـــه أن يداوي حقده بالاعتدال، وتذليل النفس بالعدل، وتحصين العيوب بتقـــويم أوده .. ثم يوصيه بالبعد عن البطر والخضوع والزهو والجبن.**

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص: ٤٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص: ٤١١.

❖ اختيار البطانة من أهل الورع والتقوى، وبيان كيفية التعامل معهم:

قولـــه: "ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرك أهـــل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك ..."[1].

وقولـــه: "ثم أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة ..."[2].

❖ التحذير من الفكاهة والضحك والمزاح والتيه والصلف:

قولـــه: "ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمـــزاح والمضاحك ..."[3].

إلى: ... "في تلك الحالة دليل على كثـــير مـــن عيـــوب أمـــره ومســـتقر أحواله..."[4].

❖ مـــا على ولي العهـــد نحو السعاية والسعاة، وتفويـــض ذلـــك إلى صاحب الشرطة:

قولـــه: "واعلم أن أقواماً سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك مـــن قبـــل النصيحة ..."[5].

وقولـــه: "وليكن صاحب شرطتك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قـــوّادك إليه إنهاء ذلك ..."[6].

❖ أن ترفع أمور الجند والخاصة والعامـــة إلى الكـــاتب، قبـــل رفعـــها إلى ولي العهد:

قولـــه: "ثم إياك أن يصل إليك أحد من جنـــدك وجلســـائك وخـــاصتك وبطانتك، بمسألة يكشفها لك أو حاجة يبدَهُك بطلبها، حتى يرفعها قبـــل ذلك إلى كاتبك الذي أهدَفْتَه لذلك ..."[7].

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤١٢.

(٢) (٣) المرجع السابق، ص: ٤١٣.

(٤) (٥) (٦) المرجع السابق، ص: ٤١٥.

(٧) المرجع السابق، ص: ٤١٧.

❖ استقبال الرسل والوفود:

قولـــه: "وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود، وأتـــاك من الرسل، فلا يَصِلْنَ أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك، وعلمِ ما قدم له عليك ..."(١).

❖ التحذير من العجب والغضب، والحيلولـــة دون الغيبـــة والنميمـــة من البطانة:

قولـــه: "إحذر تضييـــع رأيـــك، وإهمـــال أدبـــك في مســـالك الرضـــى والغضب، واعتوارهما إياك، فلا يزدهينـــــك إفـــراط عجـــب تســـتخفك روائعه ..."(٢).

وقولـــه: "وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك، وعامة رعيتك من اســـتلحام أعراض الناس عندك بالغيبة، والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء مـــن بعـــض ببعض، والنميمة إليك بشيء من أحوالهم المستقرة عنك ..."(٣).

❖ كيف يوزع نظره ويقبل على جلسائه، وعدم الإكثار من الســـؤال عما يعجبه، وغير ذلك من آداب المجلس:

قولـــه: "... فإياك والرمي ببصرك إلى خاصة من قـــوادك، أو ذي أثـــرة عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسوماً في الجميع ..."(٤).

وقولـــه: "إياك وان يظهر منك تبرم بطـــول مجلســـك، وتضجـــرٌ ممـــن حضرك ..."(٥).

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤١٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤١٨.

(٣) المرجع السابق، ص: ٤١٨ – ٤١٩.

(٤) المرجع السابق، ص: ٤١٩ – ٤٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص: ٤٢١ – ٤٢٣.

ثانياً: القسم الحربي من العهد لولي العهد:

❖ **تقوى الله عند لقاء العدو، ومعاملة الجند بالأخلاق الفاضلة:**

قولـــه: "... فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بهـــا، وركنك الذي ترتجي به منالة الظفر، وتكتهف به لمعالق الحذر، تقـــوى الله عز وجل ..."[1].

وقولـــه: "حصّـــن جنـــدك واشـــكم نفســـك بطاعـــة الله في مجاهدتـــه أعدائه ..."[2].

❖ **سلامة الجنود خير الظفر:**

قولـــه: "اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما ... ما نيل بسلامة الجنود ..."[3].

❖ **كيفية التعامل مع العيون والجواسيس الذين عنده أو عند عدوه:**

قولـــه: "واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربمـــا كانوا لك وعليك ..."[4].

وقولـــه: "واعلم أن لعدوك في عســـكرك عيونـــاً راصـــدة وجواســـيس كامنة ..."[5].

❖ **صفات من يتولى الشرطة وأمر العسكر والأحراس:**

قولـــه: "... فولِّ شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك وأظهرهم نصيحـــة، وأنفذهم بصيرة في طاعتك ..."[6].

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٢٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٢٦ — ٤٢٩.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣٠.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣١.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣٢ - ٤٣٤.

❖ **صفات القاضي وأهمية القضاء في الجيش:**

قولــه: "ثم اعلم أن القضـــاء مـــن الله بمكـــان ليـــس بـــه شـــيء مـــن الأحكام ... فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعـة، والعفاف والنـــزاهة، والفهم والوقار والعصمة والورع ..."(١).

❖ **الطلائع وأنواع أسلحتها وأهميتها ومن يتولى أمر قيادتها:**

قولــه: "ثم تقدم في طلائعك فإنها أول مكيدتك، ورأس حربك، ودعامـــة أمرك فانتخب لها من كل قادة وصحابة، رجالاً ذوي نجدة وبأس ..."(٢).

وقولـــه: "... معهم السيوف الهندية، وذكور البيـــض اليمـــانية، رقـــاق الشفرات، مسمومة الشحذ غير كليلة الحد ..."(٣).

وقولـــه: "واحذر أن تكل مباشرة عَرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانـــك أو كتابك ..."(٤).

❖ **من يتولى درّاجة العسكر، وصلاحيات أمراء الجند وقادة الخيل:**

قولــه: "ولِّ درّاجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجـــالاً من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، ومعروف النجدة ..."(٥).

وقولـــه: "فوِّض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور أصحـــابهم، والأخـــذ على قافية أيديهم ..."(٦).

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٣٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣٦ – ٤٣٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٣٨.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٤٠.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٤١ – ٤٤٢.

❖ **ماذا على ولي العهد عندما يقترب من عدوه، وكيفية التعبئة والمسير، وبيان قائد الساقة وواجباته:**

قوله: "إذا كنت من عدوك على مسافة دانية، وسنن لقاء مختصر ... فتأهب أهبة المناجز، وأعِدَّ إعداد الحَذِر ..."(1).

وقوله: "ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً ..."(2).

❖ **التعرف على كيفية الرحيل وأنواع الأهبة وكيفية النزول وملاحقة العدو:**

قوله: "ليكن رحيلك إباناً واحداً، ووقتاً معلوماً، لتخف المؤونة بذلك على جندك ..."(3).

وقوله: "إياك أن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك ..."(4).

❖ **أوصاف الفرسان وأنواع أسلحتهم وتكتيبهم وأهبتهم:**

قوله: "ليكن أول ما تقوم به في التهيؤ لعدوك والاستعداد للقائه، انتخابك من فرسان عسكرك، وحماة جندك، ذوي البأس والحنكة والجلد ..."(5).

وقوله: "ثم ولّ على كل مئة رجل منهم، رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك ونصحائك، له صيت في الرياسة ..."(6).

---

(1) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٤٢.

(2) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٤٣ — ٤٤٤.

(3) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٤٥.

(4) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٤٦ — ٤٤٩.

(5) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥٠.

(6) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥١ — ٤٥٢.

❖ صفات صاحب الخزائن والدواوين:

قولــه: "وكِّلْ بخزانتك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً ذا ورع حاجز، وديـن فاضل ..."[1].

❖ حيل تضعف العدو:

قولــه: "اعلم أن أحسن مكيدتك أثراً في العامة، وأبعدها صيتاً في حســن القالة، ما نلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة ..."[2].

❖ ماذا على الجند عند اللقاء:

قولــه: "إذا تدانى الصفان، وتواقف الجمعان، واحتضرت الحرب ... فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، والتوكل على الله عز وجل ..."[3].

❖ الدعــاء بالنصر:

قولــه: "أيدك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشـد ... والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"[4].

❖ تاريخ الرســالة:

قولــه: "وكتب سنة تسع وعشرين ومئة"[5].

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٥٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥٤.

(٤) (٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥٥.

حول رسالة عبد الحميد الكاتب

إلى ولي العهد

هذه الرسالة المطولة، والتي خطها عبد الحميد الكاتب لمروان بن محمد الخليفة الأموي، لولي عهده عبد الله، حاول أن يضع فيها عبد الحميد خلاصة تجاربه في الحياة، وما تولد عنده من حكم الرجل المجرّب، الذي مزج تجربته بما تجمّع لديه من ثقافات العرب والأمم الأخرى، وما تحصّل عنده من علم ومعرفة منوعة، كل ذلك صبه عبد الحميد الكاتب في قالب هذه الرسالة، التي جاءت أنموذجاً فريداً من نوعه.

حيث أرى أن عبد الحميد قد تقمص شخصية الوالد والخليفة والمربي والإنسان، الحريص على مصلحة الخلافة والدولة، فجاءت رسالته تفيض بمشاعر الحرص على أن يحقق الولد ما يصبو إليه والده، ويتمناه الخليفة، ويرجوه الشعب.

كما أرى أن عبد الحميد قد طبق ما يتمتع به من تفكير منطقي منظم على رسالته، فقد ظهر التسلسل المنطقي للرسالة من خلال عرضه للأفكار المختلفة، حسب أهميتها وأولويتها حسبما يراه، ففي المقدمة بيّن التكليف من الخليفة لولي العهد، وحدد العدو وصفاته، ثم انتقل إلى أهم الآداب والأخلاق التي على ولي العهد أن يتحلى بها، مع بيان كيفية التعامل مع الخاصة والعامة، ثم منطقياً بعد الجانب الأخلاقي والسلوكي انتقل إلى الجانب الحربي، وفي هذا الجزء أيضاً نرى عبد الحميد يسلك منطقية مناسبة في عرض الأولويات التي بدأها، بضرورة الاستشعار بتقوى الله عند لقاء العدو، ثم أهمية الحرص على سلامة الجند، ثم كيف يتعامل أو يعين أصحاب المسؤوليات المختلفة، من عيون وشرطة وقضاة وطلائع ودرّاجة العسكر ... وتنتهي الرسالة بالدعاء بالنصر والتاريخ.

أما تعدد الصيغ الأمرية التي أوردها عبد الحميد، فتدل على حسن دراية باللغة العربية، ويهدف منها إلى تنويع الأساليب، التي قد تدعو إلى الإثارة، وإلى حسن التعليم، والى الاهتمام بالقراءة والمتابعة والتنفيذ، ومن بين هذه الصيغ:

اعلم، ولْتكن، إياك، ولا تأمن، بالإضافة إلى الأفعال الأمرية الأخرى، وهذه الصيغ الأمرية لا تكاد تخلو منها بداية فقرة في الرسالة.

وأظهر الكاتب في الرسالة الإطناب والتبسط في مواضع كثيرة، سواء ما بعد المقدمة في الفقرة التي تبدأ: "اعلم أن للحكمة مسالكَ تفضي ..."، أو عندما قال: "هذه جوامع خصال لخصها لك أمير المؤمنين ..."، إلى غير ذلك، حيث باستطاعة القارئ أن يختصر هذه الفقرات إلى النصف دون إخلال بالمعنى العام للفكرة، ومع ذلك فقد جاء إطنابه مقبولاً مستساغاً ومحبباً.

لقد أوجد الكاتب في رسالته ما يطلق عليه توازن الجمل، وهي من الصفات العامة لترسله، وقد ظهرت هذه الصفة واضحة جلية في رسالته، سواء كانت الجمل طويلة أو قصيرة، فالتوازن بينها موجود، حتى يصل به الأمر إلى التساوي في عدد الكلمات، مثلما أورده عندما قال: "... وتداري جندك بالإحسان، وتصون نفسك بالكتمان، وتداري حقدك بالإنصاف ..."[1].

وقوله: "فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سأل منها، أذنت له في طلبها ... ومنحة رأي، وبسطة ذرع، وطيب نفس ..."[2].

---

(١) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، ج ١٠، ص: ١٩٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٠٣.

وكذلك من ميزات أسلوب عبد الحميد الترادف، الـــذي وجـــد في أكثر من موقع في الرسالة، مثل: "لأنها خُدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانباً لها، وتوقعها محترساً منها"(١).

وقولـــه: "فإذا قُدِح لك لاح شـــرره، وتلـــهّب وميضـــه، ووقـــد تضرّمه"(٢).

ويظهر التأثر الإسلامي لشخصية الكاتب في فكره وقلمه، فـــأغلب العظات والنصائح مصدرها إسلامي، فنراه يزين رسالته بألفاظ وآيات قرآنية كقوله: "وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتح الخير، وبيده الملك، وهو على كل شيء قدير"(٣).

وقولـــه: "ساء ما كسبت يداه (وما الله بظلاّم للعبيد)(٤)، وساء ما سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد، (وسيعلم الذيـــن ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)(٥).

ومنهم من يرى(٦) تأثره بالثقافة الفارسية واضحاً في قوله: "ثم لتكـــن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرك، أهل الفقه والورع مـــن خاصة أهل بيتك، وعامة قوّادك ممن قد حنكته السن بتصـــاريف الأمـــور،

---

(١) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، ج ١٠، ص: ١٩٧.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٠١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٠٩، مقتبسة من الآية الكريمة (وعنده مفاتح الغيب ..) مـــن سورة الأنعام، آية: ٥٩.

(٤) مأخوذة من الآية الكريمة: (... وأن الله ليس بظلاّم للعبيد)، سورة آل عمران، آيـــة: ١٨٢، سورة الأنفال، آية: ٥١، سورة الحج، آية: ١٠.

(٥) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبـــح الأعشـــى، ج ١٠، ص: ٢١٠، الآيـــة ٢٢٧، سورة الشعراء.

(٦) نصار، د. حسين، نشأة الكتابة الفنية، ص: ١٣٧.

وخطبته فصالها بين فراسن البُـزَّل منها، وقلبته الأمور في فنونها، وركـب أطوارها"[1].

ومنهم من يرد قوله الآتي إلى التأثر بالثقافة اليونانية، "ثم وَلِّ على كل مئة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك ونصحائك، له صيت في الرياسة وقدم في السابقة"[2].

ويكثر عبد الحميد من الصيغ النحوية في الفقرة الواحدة، وقد يكـرر ذلك في أكثر من موضع خاصة في باب الحال.

كما يورد المفعول به المقدم في صدر الجمل، وهو ما يسمى بأسلوب القصر :

"وفرحاتك فاشكمها عن البطر"[3].

"وروعاتك فحطها من دهش الرأي"[4].

"وحذراتك فامنعها من الجبن"[5].

ويورد اسم الفاعل:

"وعاصمك من كل سُبّة، ومنجيك من كل هوّة، وناعشك من كل صرعة، ومقيلك من كل كبوة، وداري عنك كل شبهة"[6].

ويورد صيغة التفضيل متلوة بالتمييز:

"وهو أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالـةً، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة ..."[7].

وتعتبر صيغة الحال والتفضيل المتلو بالتمييز، والمضاف والمضاف إليه، والجار والمجرور مبثوثة في هذه الرسالة بكثرة.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص: ٢٠٠.

(٢) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٥١.

(٣) (٤) (٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص: ٢١٠.

(٦) المرجع السابق، ص: ٢١٠.

(٧) المرجع السابق، ص: ٢١١.

وإن رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب كما أشرت سابقاً، مرسلة باسم مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مروان[1]، (وقيل عبيد الله بن مروان)[2]، تقع في أكثر من خمسين صفحة من القطع المتوسط، وتعتبر هذه الرسالة أكبر رسالة يسطرها عبد الحميد ووصلت إلينا، وربما يكون قد كتبها سنة (١٢٨ هـ)[3]، وأهم الخصائص العامة التي تميزت به هذه الرسالة:

١- لقد جعل عبد الحميد هذه الرسالة "دستوراً كاملاً في تنظيم الجيوش تنظيماً يشمل الناحيتين المادية والحربية[4].

٢- وتعتبر شبه كتاب في فن الحرب وتنظيم الجيش، ملأها نصائح وتحذيرات وإرشادات أخلاقية عامة، وبخاصة آداب السلوك والمراسم المتبعة في القصر، وقواعد التعامل مع الحاشية والجلساء من القادة والموظفين ومختلف طبقات الشعب[5].

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت، ج ٢، ص: ٤٠٦-٤٥٥.
- خفاجي، محمد عبد المنعم، أعلام الأدب في عصر بني أمية، ص: ١٢٣ - ١٢٤.
- المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص: ١٦١ - ١٦٧.
- نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية، ص: ١٣٣ - ١٥٦.
- منصور، سعيد، الفن الشعري، ص: ٤٣.
- الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: ٣٧٦.
- القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، ج ١٠، ص: ١٩٥.
- عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٢١٥ - ٢٦٥.

(٢) عباس، إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ٩٢ / ٢١٥.

(٣) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: ٣٧٦، يرى أنها كتبت سنة ١٢٧ هـ.
- البستاني، بطرس، أدباء العرب، ص: ٤٠٩.
- المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص: ١٦١، يرى أنها في سنة ١٢٩ هـ.

(٤) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: ٣٧٦.

(٥) عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد إلى ولي العهد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، ج ٤، ص: ٧٧٢.

٣- يظهر في هذه الرسالة منطقية عبد الحميد الكاتب المنظمة، حيث يقسم كلامه إلى فقرات منفصلة، موزعة على أفكار منفصلة، يجمع بينها السياق العام، فبعد المقدمة التي يبين فيها غرض الرسالة، يقسم الرسالة إلى قسمين رئيسيين:

أولهما يتحدث فيها عما يجب أن يتحلى به ولي العهد من آداب وسلوك وأخلاق.

وثانيهما يتناول فيه الكاتب سياسة ولي العهد في الجيش وتنظيمه، ثم نراه يقسم الجزء الأول إلى قسمين، يتحدث في القسم الأول عن آداب وعادات ولي العهد، ويتحدث في الثاني عن آدابه في حاشيته وآداب الحاشية نفسها، ثم يقسم القسم الثاني إلى جزأين، يحدد في الأول سياسة الجيش العامة، وفي الثاني يتحدث عن التنظيم الداخلي للجيش[١].

٤- ومنهم من يرى أن عبد الحميد قسّم رسالته إلى قسمين كبيرين: أحدهما يتعلق بالسياسة المدنية والآخر بالسياسة العسكرية، حيث أظهر فيها سعة ثقافته واطلاعه وحسن تدبيره[٢].

٥- وتظهر هذه الرسالة الثناء والمدح للأمير، وبيان ما سيمدح به، وهو مما جاء به الكاتب مستفيضاً بعد المقدمة[٣].

٦- حاول عبد الحميد أن يضع منهجاً أمام الحاكم أو ولي العهد، مشيراً عليه باتباعه[٤]، وهو:

---

(١) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية، ص: ١٣٣.

(٢) البستاني، بطرس، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص: ٤٠٩.

(٣) منصور، سعيد، الفن الشعري، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٤) شمس الدين، د. عبد الأمير، ز، الفكر التربوي عند ابن المقفع – الجاحظ – عبد الحميد الكاتب، ص: ٣٤ – ٤٢.

أ – إصلاح الحاكم نفسه بالعلم والتأديب والحكمة.

ب – والاتصاف بتقوى الله عز وجل ومعاداة الهوى.

ت – وتدبر أمر العامة والخاصة.

ث – وتفقد أحوال الرعية.

ج – وحسن المشورة والمجالسة والمحادثة وتقديم أهل الفضل.

ح – وتدبير أمر الجند والقضاة والولاة.

٧- والرسالة "دستور لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، مما يتعلق بشؤون القائد الخاصة والعامة إلا أحصاها على سبيل البسط والإطناب والتقصي، باستعمال المترادف والإكثار من التمثيل واستقصاء المعنى"(١).

٨- نلاحظ في هذه الرسالة المطولة أنها لم تبدأ بالتحميد، ولم يظهر التحميد في فصولها، بخلاف ما وصف فيه أسلوب عبد الحميد بهذه الصفة.

(١) مردم بك، خليل، عبد الحميد الكاتب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ص: ٤٠٠.

من رسائل عبد الحميد الكاتب الإخوانية

- رسالته إلى الكُتّاب -

الأفكار الواردة في رسالة عبد الحميد (إلى الكُتّاب)[1]:

١ – المقدمة: منــزلة الكتّاب في الدولة:

"أما بعد، حفظكم الله يـــا أهـــل صناعـــة الكتابـــة، وحـــاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عـــز وجـــل جعـــل النـــاس بعـــد الأنبيـــاء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرَّمـــين، أصنافـــاً، وإن كـــانوا في الحقيقـــة سَـــواء، وصرَّفـــهم في صُنـــوف الصناعات وضُروب المحاولات، إلى أسباب مَعايِشهم، وأبـــواب أرزاقـــهم، فجعلكم معشر الكُتّاب في أشـــرف الجـــهات، أهـــلَ الأدب والمُـــروءة، والعِلـــمِ والروايـــة، بكـــم تنتظـــم للخلافـــة مَحاسِـــنُها، وتســـتقيم أمورها، وبنصائحكم يصلـــح الله للخلـــق ســـلطانهم وتعمُـــرُ بلادهـــم، لا يستغني المَلِـــكُ عنكـــم، ولا يوجـــد كـــافٍ إلا منكـــم، فموقِعُكـــم من الملوك مَوقعَ أسماعهِم الـــتي بهـــا يســـمعون، وأبصـــارهم الـــتي بهـــا يُبصرون، وألسنتِهِم التي بها يَنطقـــون، وأيديـــهم الـــتي بهـــا يَبطشـــون، فأمتَعكم الله بما خصَّكم من فضـــل صنـــاعتكم، ولا نَـــزَع عنكـــم مـــا أضْفاه من النعمة عليكم"[2].

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج ١، ص: ٤٥٥ – ٤٦٠، منهم من يعتبر هـــذه الرسالة ديوانية لأنها ســـتقرأ في الولايـــات الإســـلامية علـــى الكُتّـــاب، انظـــر صفحـــة ١٠٤ / ١٠٥ من هذه الرسالة.

(٢) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج ١، ص: ٤٥٦.

يبدأ عبد الحميد الكاتب رسالته إلى الكتّاب – زملائه في مهنته – بمقدمة اتصفت بما يلي:

* خلوها من التحميد(1)، حيث بدأها بأما بعد.

* ثم أخذ بالدعاء لأهل صناعة الكتابة بالحفظ والرشاد والتوفيق.

* وأعلن أن أهل صناعة الكتابة أشرف الناس والمهن في المجتمع، فترتيبهم في المجتمع يأتي بعد الأنبياء والمرسلين والملوك.

* ثم بيّن سبب تلك المكانة الرفيعة للكُتّاب؛ لأن أمور الخلافة والدولة لا تستقيم إلا بهم وبنصائحهم، ولأنهم من الملك موقع السمع والبصر واللسان واليد.

* وأنهى عبد الحميد الكاتب المقدمة بدعائه لزملائه في المهنة بدوام النعمة.

٢ – أخلاق الكُتّاب:

"وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها، أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخِصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبُه الذي يثق به في مُهمات أموره، أن يكون حليماً في موضع الحِلْم، فهيماً في موضع الحُكم، مِقْداماً في موضع الإقدام، مِحْجاماً في موضع الإحجام، مُؤْثِراً للعفاف، والعدلِ والإنصاف، كَتوماً للأسرار، وفيّاً

(1) يرى الدكتور إحسان عباس في كتابه عبد الحميد الكاتب، ص: ١٨٣، أن خلو هذه الرسالة من التحميد ربما كان قد حذفها الرواة للإيجاز، ولكن أرى أن معظم رسائل عبد الحميد التي وصلت إلينا، والتي اتصفت بالطول خاصة قد خلت من التحميد في مقدمتها.

عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضِعَها، والطـوارقَ أماكنَها، قد نظر في كل فنّ من فنون العلم فأَحْكَمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يَكتفي به، يعرف بغريزة عقله، وحُسْن أدبه، وفضل تجربته، ما يَـرِدُ عليه قبلَ وروده، وعاقبةَ ما يصدر عنه قبل صُدوره، فيُعِدُّ لكل أمـر عُدَّتـه وعَتادَه، ويُهَيِّئُ لكل وجهٍ هيئتَه وعادته"[1].

وفي هذه الفكرة يوضح عبد الحميد أن الكتّاب هم أحـوج أفـراد المجتمع للتحلي بالأخلاق الكريمة، وأهم هذه الأخلاق:

{ أن يتصف الكاتب بالحِلْم، والفهم، والإقدام، والعفـاف، والعـدل، والإنصاف، وعليه أن يكون حافظاً للسر، يضع الأمـور في مواضعـها، وأن يأخذ من فنون العلم والأدب ما ينفعه، وأن يحسن تقديـر الأمـور والنتائج }.

واعتبر عبد الحميد هذه الأخـلاق هـي السـلاح، الأول الـذي على الكاتب أن يتصف به، بحيث إذا جمع مع السـلاح الثـاني الـوارد في الفكرة التالية، تتكون عندها شخصية الكاتب التي يسعى عبـد الحميـد إلى تشكيلها.

٣ – الجانب الثقافي في شخصية الكاتب:

"فتنافَسوا يا معشر الكُتّاب، في صنوف الأدب، وتفقّهوا في الديـن، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثِقافُ ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط؛ فإنه حِلْية كتبكم، وارْوُوا الأشـعار، واعرِفـوا غريبَـها ومعانيَها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسِيَرَها، فإن ذلك مُعـينٌ لكـم على ما تسْموا إليه هِمَمُكم، ولا تضيِّعوا النظر في الحساب، فإنه قِوامُ كُتّـاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع: سَنِيّها ودَنيّها، وسَفْسَـافِ الأمـور

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٥٦.

ومَحاقِرها، فإنها مَذَلَّة للرِّقاب، مَفْسَدة للكُتّاب، ونَزِّهوا صناعتكم عن الدَّناءات، وارْبَأوا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة، وما فيه أهلُ الجهالات، وإياكم والكِبْرَ والصَّلَف والعَظمةَ، فإنها عداوة مُجتلَبة من غير إحْنَة، وتحابُّوا في الله عزّ وجَل في صناعتكم، وتواصَوا عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سَلَفكم"[1].

وهنا يوضح عبد الحميد الكاتب أن الجانب الثقافي أمره مكتسب يرجع إلى شخصية الكاتب، وهو في مقدار تحصيله يختلف من كاتب لآخر، فلذلك طلب عبد الحميد الكاتب منهم أن يتنافسوا في التحصيل والتثقيف، ومكانة الكاتب تكون بمقدار ما يحسن من صنوف الثقافة.

ثم طلب عبد الحميد من الكُتّاب أن يأخذوا من صنوف الآداب، ويتفقهوا في الدين، ويتعلموا العربية، ويجوِّدوا خطوطهم، ويرووا الأشعار، ويتعرفوا على أيام العرب والعجم، وينظروا في الحساب، ويبتعدوا عن المطامع والدناءات والسعاية والنميمة والكبَر والصلف والعظمة، وأن يتحابوا في الله لأنه أليق بأهل الفضل والعدل.

وبعد أن تحدث عبد الحميد في هذه الفقرة عن الجانب الثقافي، عاد في نهايتها ليذكر بأمور أخلاقية أخرى لتلتقي مع الفكرة السابقة، فعبد الحميد يعتبر أن من كمال شخصية الكاتب أخلاقه وعلمه.

٤ – كيف يتعامل الكاتب مع ولي أمره وزميله:

"وإن نَبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسُوه، حتى يَرجِع إليه حالُه، ويثُوب إليه أمره، وإن أقعدَ أحدَكم الكِبَرُ عن مكسَبه ولقاء إخوانه، فزُوروه وعظِّموه، وشاوِروه، واستظْهِروا بفضل تجرِبته، وقِدَمِ معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظْهَرَ به ليوم حاجته إليه، أحفَظَ منه على

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ٤٥٧.

ولده وأخيه، فإن عَرَضَت في الشغل مَحْمَدَة، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبـــه، وإن عَرَضَتْ مَذَمَّة فليَحْمِلها هو من دونه، وليَحْذر السَّقْطة والزَّلـــة، والملَــلَ عند تغير الحال، فإن العيبَ إليكم معشرَ الكُتّاب. أسرعُ منه إلى القرّاء، وهــو لكم أفسدُ منه لها.

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه الرجلُ يَبْذُلُ له من نفسه مـــا يجب له عليه من حقّه، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله وصبره. ونصيحته وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جَزاء لحقه، ويصـــدِّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه.

فاستَشْعِروا ذلكم — وفّقكم الله — من أنفسكم في حالـــة الرَّخـــاء والشدة، والحِرمان والمــُواساة والإحسان، والسَّرّاء والضَّرّاء، فنِعْمت الشِّيمةُ هذه لمن وُسِمَ بها، من أهل هذه الصناعة الشريفة"[1].

ويرى عبد الحميد الكاتب ضرورة مواساة من عضه الدهـــر بنابـــه، والشعور بشعور من أقعده الكبر عن مصالحة، وأن حِفْظَ الجميل لمن يعمـــل عندهم الكُتّاب والمحافظة على سمعتهم ومكانتهم واجب، مـــع البعـــد عـــن مواطن الزلل والانحراف عند تغير الحال.

ثم يركز عبد الحميد على خلق الوفاء وحسن التعامل مع من يصاحبـه في السراء والضراء، وقد ترجم عبد الحميد هذا الخلق عملياً، حيث كان وفياً للخليفة مروان بن محمد، ولصديقه ابن المقفع ولدابته، (كما رأينا في بدايـــة هذا الفصل).

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ٤٥٧.

٥ – تقوى الله في الرعيـــة:

"فإذا وُلِّيَ الرجلُ منكم، أو صُيِّر إليه من أمر خَلق الله وعِياله أمـــرٌ، فليراقبْ الله عز وجل، وليُؤثرْ طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلـــوم مُنصفاً، فإن الخلقَ عِيال الله، وأحبُّهم إليه أرفقُهم بعياله، ثم ليكـــن بـــالعدل حاكماً، وللأشراف مُكْرِما، وللفَيءْ موفّـــراً، وللبـــلاد عـــامراً وللرعيـــة متألفا، وعن إيذائهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا، وإذا صحب أحدُكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عَرَف حَسَنَها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحَسَن، واحتال لصَرفـه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتـــم أن ســـائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها، التَمَسَ معرفة أخلاقَها، فإن كانت رَموحـــاً لم يَهجْها إذا رَكِبَها، وإن كانت شَبُوبا اتَّقاها من قِبَل يديها، وإن خاف منها شُرُودا توقاها من ناحية رأسها، فإن كانت حَرُونا قَمَع برفـــق هواهـــا في طريقها، فإن استمرت عَطَفَها يسيراً، فَيَسْلَسَ له قِيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعامَلهم، وجرّبهم وداخلهم"[١].

ويتحدث عبد الحميد الكاتب في هذه الفكرة عن تقوى الله، فـــيرى ضرورة حسن مراقبة الله فيما يتولاه الكُتّاب من أمور الرعية، مـــع مراعـــاة الرفق بالضعيف، وإنصاف المظلوم، والعمل على تأليف الرعية، والتواضـع في المجلس، وحسن التعامل مع سجلات الخراج، واختبار أخلاق من يصـــاحب، فيعينه على الحسن، ويخلص من السيئ، ثم أراد من الكُتّاب أن يسوسوا أمـور الناس كما يتعامل سائس البهيمة مع بهيمته.

وهو هنا يشبه الكاتب الذي يستلم منصباً، كسائس البهيمة في تحمل المسؤولية، وحسن وكيفية التعامل معها.

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ٤٥٨.

٦ – حُسن التصرف مع من يتعامل معه الكُتّاب:

"والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يُحاورُه من الناس ويناظِره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرِّفق بصاحبه، ومداراته، وتقويم أَوَده، من سائس البهيمة التي لا تُحيرُ جواباً، ولا تعرف صواباً، ولا تفهم خِطاباً، إلا بقدر ما يُصَيِّرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فأمْعِنوا – رحمكم الله – في النظر، وأعمِلوا فيه ما أمكنكم من الرَوِيِّة والفكر، تأمَنوا بإذن الله ممن صَحِبتموه النَّبْوَةَ، والاستثقال والجَفوة، ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله تعالى"(١).

وتعتبر هذه الفكرة استمراراً للجزء الأخير من الفكرة السابقة، حيث بيّن عبد الحميد أن الإنسان بعقله وعلمه، أكرم وأولى بحسن التعامل من البهيمة التي لا تعقل مع الاتصاف بالإمعان في النظر والروية والفكر.

وعلى الكاتب أن يصل بحسن معاملته إلى درجة المؤاخاة والشفقة.

٧ – الاعتدال في شؤون الحياة:

"ولا يجاوِزَنَّ الرجلُ منكم – في هيئة مجلسه، ومَلْبَسه ومَرْكَبه، ومَطْعمه ومشربه، وبنائه، وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره – قدرَ حقه، فإنكم – مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم – خَدَمَةٌ لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير، وحَفَظَةٌ لا تُحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرتُه لكم، وقّصّصْتُه عليكم، واحذروا متالف السَّرَفِ، وسوء عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعْقبان الفقر، ويُذلاّن

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ٤٥٨.

الرقاب، ويَفضحان أهلهما، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب، وللأمور أشبهٌ، وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مُؤْتَنَف أعمالكم، بما سَبَقَتْ إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها مَحَجَّةً، وأصدقها حُجَّة، وأحمدها عاقبة"[1].

أما هذه الفكرة فهي فكرة التوسط والاعتدال عند عبد الحميد الكاتب، حيث يرى ضرورة الاتصاف بالاعتدال في المجلس، والملبس والمركب والمطعم والمشرب والبناء والبعد عن التبذير، مع المحافظة على سلوك مسلك التدبير والبعد عن الإسراف والترف وسوء العاقبة.

٨ – سؤال الله التوفيق في أمور الحياة:

"واعلموا أن للتدبير آفة متْلِفة، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قَصْد الكافي من منطقه، وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حُجَجه، فإن ذلك مصلحة لفعله، ومَدفعة للتشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط المُضِر ببدنه، وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظانٌّ، أو قال قائل: إن الذي برز من جميل صنعته، وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يَكِلَه الله عز وجل إلى نفسه، فيصيرَ منها إلى غير كافٍ، وذلك على من تأمله غير خاف"[2].

وهذه الفكرة يبين فيها عبد الحميد الكاتب أن على الكاتب أن يعتقد أن ما يصل إليه من نجاح هو من توفيق الله له، وليس من حسن تدبيره، فالكفاية والسداد وجميل الصنع، هو من بركة التوكل على الله عز وجل، من اعتقد غير ذلك وكّله الله إلى نفسه، وعندها يكون له الخسران في الدارين.

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ٤٥٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٥٩.

٩ – البعد عن العجب والغرور:

"ولا يقُلْ أحد منكم أنه أبصرُ بالأمور، وأحملُ لعبءِ التدبير، من مُرافقهِ في صناعته، ومُصاحِبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب، مَن رمى بالعُجبِ وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه، وأحمَدُ في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضلَ نعم الله جلّ ثناؤه، من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثُرِ على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعَشيره، وحمدُ اللهِ واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظَمته، والتذلّل لعزّته، والتحدّث بنعمته"(١).

وهنا يبين عبد الحميد بعض الصفات الخلقية السلبية التي تقلل من قيمة الكُتّاب، فطالب أن لا يتصف الكُتّاب بالعجب والغرور وتزكية النفس، وأن يعرف الكاتب فضل نعم الله عليه.

وأن التواضع لعظمة الله والتذلل له وشكره على نعمه واجب على كل كاتب ومسلم.

١٠ – الخاتمة: من يلزم النصيحة يلزمه العمل:

"وأنا أقول في كتابي هذا ما سَبقَ به المثل: (من يلزم النصيحة يلزمه العمل)، وهو جوهر هذا الكتاب، وغُرَّة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخِرَه، وتمّمْته به، تولاّنا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكَتَبة، بما يتولّى به من سَبقَ علمُه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(٢).

وفي الختام أنهى عبد الحميد رسالته بحكمة يقول فيها: من يلزم النصيحة يلزمه العمل، وعبد الحميد يؤكد أن الأقوال لا تؤكد إلا بالأفعال، وأنهاها بالدعاء إلى الله أن يتولى الكُتّاب بالإسعاد والإرشاد.

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٥٩ – ٤٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ٤٦٠.

حول رسالة عبد الحميد الكاتب

إلى الكُتّاب

تأتي هذه الرسالة في المرتبة الثانية من حيث الحجم بعد رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي العهد، وذلك فيما وصل إلينا من رسائله.

وعبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكُتّاب – وكما يظهر لنا – يتحدث بإخلاص المسلم المؤمن الذي يخشى الله.

وهنا يضع عبد الحميد للكُتّاب من قوانين الأخلاق، ما تسمو به نفوسهم وتعلو به مكانتهم، ويصلح به حالهم بين الناس، وحيث تتميز هذه الرسالة بالجزالة والقوة والعناية باللفظ والمعنى على السواء، والحرص على تحقيق الترادف الموسيقي بين الجمل، ثم التفخيم والإطالة، وذلك من خلال الأسلوب الجميل القوي المحكم، والمعاني الدقيقة، والأفكار العميقة والتصوير البديع والنفس الطويل، والرسالة تعتبر دستوراً شاملاً للكُتّاب في أخلاقهم واستعدادهم وطباعهم، وما ينبغي أن يكونوا عليه[1].

ورسالة عبد الحميد إلى الكُتّاب توضح كثيراً من جوانب هذه الشخصية والقمة التي بلغتها، والموقع الذي يخاطب منه جيل الكُتّاب في عصره، وأجيال الكُتّاب في كل عصر[2].

وعن تفردها يقول سعيد منصور: "لم يحدث في تاريخ الكتابة الفنية – فيما وصلنا من نصوصها – أن خوطبت جماعة الكُتّاب، قبل عبد الحميد

---

(١) بلبع، عبد الحكيم، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص: ١٢٩ – ١٣٠.

(٢) منصور، سعيد، الفن الشعري في نثر عبد الحميد فكر ونغم، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م، ص: ٣٢.

بشيء قليل أو كثير مما خاطبهم به، ولذلك فإن رسالته تعتبر بلا جدال رائدة لكل من خاطب الكُتّاب من بعده حتى عصر القلقشندي"[1].

ورسالة عبد الحميد هذه الموجهة إلى الكُتّاب: "ضمنها وصايا مختلفة لهم، وهي تدل على نمو طبقتهم، وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة في حياة الدولة، ووظائفها وأعمالها المتنوعة، ونراه يستهلها بأن صناعتهم اشرف الصناعات"[2].

وهذه الرسالة "في فكرها وصوغها وأسلوبها ومضمونها من أروع ما سجلته الكتابة العربية في مثل هذا الباب"[3].

فمن رسالته هذه يظهر "أن صاحبها أقام لها تصميماً دقيقاً درس معانيها وأجزاءها، ووضع خطة التعبير عنها، وربط ما بين الأقسام، وجمع من بين البراهين أشدّها إقناعاً وأبلغها أثراً"[4]، وذلك حتى تترك الأثر الطيب في نفس من يقرؤها.

ثم أراد عبد الحميد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس، وتفيد الآخرين أنفسهم بأدبها[5]، لما احتوت عليه من المعاني الرقيقة والغايات السامية.

ويرى الدكتور إحسان عباس[6] أن هذه الرسالة هي رسالة ديوانية لأنها تخاطب موظفي الدولة، وهم متفاوتون في مدى إحسانهم للترسل، ولأن

---

(١) منصور، سعيد، الفن الشعري في نثر عبد الحميد فكر ونغم، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م، ص: ٣٣.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٨، دار المعارف، ص: ١١٥.

(٣) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، ص: ٢٢٦.

(٤) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجليل، ص: ٣٧٧.

(٥) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٩٧.

(٦) عباس، د. إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ١٨٢ – ١٨٣.

هذه الرسالة ستقرأ في كل قطر، فلذلك يجب أن تحمل الصفة الرسمية للالتزام بها، وإن كانت هذه الرسالة قد تجاوزت مستوى الرسالة الديوانية إلى عصبية الانتماء التي يمثلها عبد الحميد، ولكنني أرى أن هذه الرسالة هي رسالة إخوانية؛ لأنها موجهة إلى زملائه في المهنة، وأخوته في الصنعة، إضافة إلى ذلك أن ما اشتملت عليه من رقيق العبارات، وشفافية المعاني ونبل العواطف والأحاسيس، تدلنا على أنها رسالة إخوانية، لا تحمل صفة الرسمية، ولهذا يعود الدكتور إحسان عباس ليقول: فهي نموذج للتآخي والتآزر، كما تظهر التطابق بين الكاتب ورسالته، "ولهذا انتفت عنها في حقيقة الحال السمة الديوانية"[1].

وهنا أود أن أقول مؤكداً لما ذكرت ان حديث عبد الحميد في هذه الرسالة حديث وجداني، نابع من شخصية انصهرت فيها المثل العليا، ولذلك نراه يلون في رسالته بخطوط من المشاعر والأحاسيس، ممزوجة بعاطفة إنسانية نحو جماعة الكُتّاب، وتعكسها الجماعة كذلك فيما بينها، وقد أجمعت المصادر على أن عبد الحميد كان مثالاً حياً لكل ما صوره من مشاعر وعواطف إنسانية[2].

أما عن ترتيب الأفكار فربما كانت أفكار الرسالة في حاجة إلى ترتيب أكثر، إذ أننا نراه ينصح الكُتّاب بنصائح خلقية، ثم ثقافية، ثم يعود إلى النصائح الخلقية، وكذلك فعل في التوجيه الثقافي، إذ نبههم على العناية بالأدب ثم إلى العناية بالدين، ثم عاد إلى الأدب، ولكن ربما كانت هذه الرسالة في غير وضعها الحالي[3]، أو أن الكاتب أراد التشويق للقارئ أو السامع ،ويقول الدكتور مصطفى الشكعة مبيناً مكانة عبد الحميد بين

(١) عباس، د. إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ١٨٨.

(٢) منصور، سعيد، الفن الشعري، ص: ٢٥٢ – ٢٥٣.

(٣) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: ٥٧٥.

الكُتّاب رسالته التي سجلها للكُتّاب، والتي اشتملت على مزايا لم تتصف بها رسالة أخرى[١]، ومن هذه المزايا:

١- هذه الرسالة بما اشتملت عليه من حكم ووصايا وأخلاق، جديرة بأن يطلع عليها الكُتّاب عبر العصور بما فيهم كُتّاب عصرنا.

٢- وضع عبد الحميد الكُتّاب في أشرف مكان وأسمى مقام، وجعل من حرفتهم أشرف الحرف، وصناعتهم أشرف الصناعات، وخلق لهم مكانة خاصة مرموقة، جعلت للكاتب مكانته في العصور اللاحقة، حيث اصبح الوزراء يختارون من بين صفوف الكُتّاب.

٣- جعل عبد الحميد الكُتّاب سبباً في استقامة أمور الدولة، لقد تحدث عبد الحميد عن الكُتّاب فأوفى، بعد أن بين لهم أخلاقهم، وثقافتهم وعلمهم، ومكانتهم، وقيمتهم، وكل الأمور التي تجعل من الكاتب إنساناً كريماً له شخصيته.

إن هذه الرسالة صدرت من شخص عاش تجربة الترسُّل، في موقع متقدم عند الولاة أو الأمراء أو الخلفاء، فلذلك جاءت رسائله بشكل عام، ورسالته هذه بشكل خاص، نتيجة تجربة صادقة مارسها الكاتب بنفسه، لينتج لنا ترسلاً فريداً من نوعه، لم يسبق إليه على مستوى الكم أو الكيف.

وعبد الحميد الكاتب ينشد لمجتمع الكُتّاب أن يكون مجتمعاً مثالياً، يعيش في مدينة فاضلة، يتنافسون التنافس البريء والبنّاء، الذي يحكمه الحب والتعاطف والمؤاساة، وهذا الأمر يظهر سيطرة النزعة الأخلاقية على قلم وفكر عبد الحميد، والتي تعكس شخصيته وذاته[٢].

(١) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، ص: ٢٣٢ – ٢٣٣.

(٢) منصور، سعيد، الفن الشعري في نثر عبد الحميد، ص: ٣٩ – ٤١.

وفي هذه الرسالة نرى عبد الحميد يدعو فيها "إلى تأليف ما يشبه النقابة في عصرنا، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من ينبو به الزمان منهم، وأن يواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره"(١).

ويظهر في هذه الرسالة أسلوب عبد الحميد، وخصائصه الأدبية والتي منها:

١- **الإطناب:** كما يظهر في عرض الأفكار التالية: مكانة الكتاب ومنزلتهم في الدولة، وأخلاق الكُتّاب، وكيف يتعامل الكاتب مع ولي أمره وزميله. ويتقي الله في الرعية، وغيرها.

٢- **الإيجاز:** وأكثر ما ظهر الإيجاز في الخاتمة، وإن كانت معبرة وتكاد تفي بالمقصود، ولكن كان باستطاعة الكاتب أن يظهر فيها خلاصة ما وضعه في رسالته.

٣- **التحميد:** خلت الرسالة منه.

٤- **المطلع:** بدأت بكلمة الفصل: أما بعد، ثم الدعاء بالحفظ للكُتّاب.

٥- **الخاتمة:** بيان محور الرسالة والهدف الأسمى منها، ثم الدعاء.

٦- **الترادف:** بكلمات: العدل والإنصاف، السعاية والنميمة، السقطة والزلة، واحتماله وصبره، وجمل: الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة والإحسان، والسرّاء والضرّاء.

٧- **الطباق:** محمدة - مذمة، الرخاء - الشدة، الحرمان - المواساة، الحسن - القبيح.

---

(١) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١١٦.

٨- **التقسيم بين الفقرات:** داخل الفقرة الواحدة مما تميزت به هذه الرسالة: .. من وفائه وشكره، واحتماله وصبره، ونصيحته وكتمان سره، وتدبير أمره.

٩- **السجع:** من وفائه وشكره، واحتماله وصبره، ونصيحته وكتمان سره، وتدبير أمره،
وللرعية متألفاً، وعن إيذائهم متخلفاً،
بألطف حيلة، وأجمل وسيلة.

١٠- **ترادف وسجع وتوازن:** التي لا تحير جواباً، ولا تعرف صواباً، ولا تفهم خطاباً.

١١- **الحال:** لن يأت إلا نادراً، على خلاف ما وصف به ترسل عبد الحميد.

١٢- **اختتام الجمل بضمير الجمع المتصل (كُمْ):** ورد كثيراً.

١٣- **الألفاظ:** مختارة، سهلة واضحة (إلا نادراً)، مناسبة للمعنى، أحسن توظيفها في جملها.

١٤- **تعدد في الأساليب بين خبرية وإنشائية:** تتلاءم مع محتوى وهدف الرسالة.

١٥- **الصبغة الإسلامية على الرسالة والكلمات المختارة الدالة على ذلك.**

رسالة عبد الحميد الكاتب

في وصف الصيد

تحدث عبد الحميد الكاتب في رسالته هذه عن أفكار عامة قسمتها كما يلي:

١ – المقدمة: دعاء وذكر لنعمة الصيد الموفور.

"أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيَّداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، مُمَتَّعاً بالنعمة، إنه لم يُلَقَّ أحد من المقتنصين، ولا مُنِع متطرِّف من المتصيدين، إلا دون ما لقّانا الله به من اليمُن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا، من كثرة الصيد، وحُسْن المقتنص، وتمكين الجاسة[1] وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القُدورة[2]، إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النَّصَب، لنافر الصيد، وفائتة الطريدة، التي أمعنَّا في الطلب لها، وأعجزنا البُهرُ عن اللحاق بها، لتفاوت سبْقها، ومنقطع هربها ومتفرِّق سبُلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب"[3].

وفي هذه المقدمة يظهر لنا أن عبد الحميد افتتح رسالته بدعائه بطول بقاء أمير المؤمنين.

ثم يخبر أمير المؤمنين عن وفرة الصيد، وأنه لم ينله أحد غيرهم، وهذا من يمن الله وبركته ، ثم يقول إن وفرة الصيد وسهولته لم تمنع من مطاردة نافر الصيد وطلبه.

ونلاحظ أن عبد الحميد بدأ رسالته بالدعاء ثم دخل بالموضوع مباشرة دون مقدمات.

---

(١) الجاسة: جمع جائس، وهو الذي يجوس أي يطلب الشيء باستقصاء.

(٢) القدورة: بمعنى القدرة والاقتدار.

(٣) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٦٤.

ولقد خلت الرسالة وفصولها من التحميد إلا ما كان ختام الرسالة بقوله والحمد لله على كل حال.

٢ – وصف لرحلة الصيد: الأسلحة، والزمان والمكان:

"وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدّها أطرافاً، وأطولها أعضاء، قد ثُقِّفَت بحسن الأدب، وعوِّدت شدة الطلب، وسَبَرَت أعلام المواقف، وخَبَرَت المجاثم، مجبولة على ما عُوِّدت، ومقصورة على ما أدّبت، ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة، من الشِّهرية[1] الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة، فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنابك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات[2]، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطا، وتجتذبنا أعنّتها انبساطا، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر، وتخفي سبل السلام، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب، أشِبَة[3] الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب، فأدّانا المسير إلى غابةٍ دونها مألف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكل حرة جونة متفرقون، فرجع بنا العَوْد على البدء، وقد انجلت الضبابة، وامتد البصر، وأمكن النظر، فإذا نحن برَعْلَةٍ من ظباء، وخلفة آرامٍ يرتعن آنسات، قد

---

(١) الشهرية: ضرب من البراذين، بين البرذون والمقرف من الخيل.

(٢) الغلوة: مدى رمية السهم.

(٣) أشبة: ملتفة الشجر.

أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حِسِّنا، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية، ومنتهى نظـــر الشـــاخص، ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرتُ بإرسالها على الثقة بمُحْضِرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تخف حفيف الريح عنـــد هبوبها، تسف الأرض سفّاً، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارهـــا، حارشـــةً بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بهـــا وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكـــضٍ تحـــت مفـــره، وخافقٍ يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسانحٍ قد عارضه بارحٌ، قـــد حيرتنـــا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعـــم الوهاب"[1].

يتحدث عبد الحميد في هذا الجزء عن العدة والعتاد، الذي رافقـهم في رحلة الصيد، من الطيور الجارحة والخيول القوية السريعة، ويحدد عبد الحميد مكان الصيد، فهو في غابة، وأرض كثرت ظباؤها وثعالبها وأرانبها ووحشها وأشجارها وخضرتها وأزهارها، حيث يتحدث بعد ذلك، عـــن انطـــلاق وسائل الصيد كل إلى هدفها.

أما الزمان فقـــد ابتـــدأت الرحلـــة عنـــد مشـــرق الشـــمس، في فصل ماطر.

ثم تحدث عن الأسلحة المستخدمة في الصيـــد: الطيـــور والكـــلاب المدربة.

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٦٤ – ٤٦٦.

٣ – جولة صيد في روضة:

"ثم مِلنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب، إلى غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر، مملوءة من أنواع الطير، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخفق لها بطبول، وصفر بنفير الحتف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها، ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها ويخفضن الظفر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيح، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها لا نملك أنفسنا مرحا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب"[1].

وفي هذه الفقرة يصف عبد الحميد الروضة الخضرة التي ملئت بالصيد الوفير، وهذه الجولة الجديدة دلهم إلى مكانها دليل عارف بالمكان، حيث قادهم إلى منطقة الصيد، وهي عبارة عن روضة خضراء، فيها غدير مع أشجار ملتفة، حيث اقتصرت هذه الجولة على ما قامت الصقور الجارحة بصيده، وقد كان وفيراً، وقد سيطر على فرقة الصيد الفرح والمرح والسرور، وهذا كله من فيض الله المنعم الوهاب.

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٦٦.

٤ – جولة صيد، صعبة وفاشلة:

"ثم غدونا يا أمير المؤمنين إلى أرض وصف لنـــا صيدهـــا بـــالكثرة، ورياضها بالنـــزهة، فزلّ واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا على غير الحقيقـة، فأتيناها فلم نر صيداً ولا عشباً، ولا نزهة ولا حسناً، فجعلنا نســلُك منـــها حُزوناً ووعوراً، وجُدوباً وقَفْراً، حتى قصَّر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنـــا عن الطمع النصبُ، فبينا نحن كذلك إذ بدا لنا جأبٌ قد أوفى بنا على حـــائل بهادلِ غابة، من ورائها حمير وحش كثيرة فأممناها، فلما تطرفنا مشياً وتقريبـــاً إلى عاناته، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منـــا مـــا استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمـــرأى ومســـمع انجذبـــن موليات، وهربن مسيبات، فأجهدنا الركض في طلبـــهن، نتبـــع آثـــارهن، ونستشف يلاءً بين أحفار ود كادك وخناذيذ، حتى أشفى بنا الطلب لها على وادٍ هائلٍ بجنبتيه غابة أشبة قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمناها بـــالخيل نظم الخزز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالهـــا، والطبـــول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال"[1].

ثم ينتقل عبد الحميد الكاتب في وصفه إلى يـــوم جديـــد إلى أرض جديدة، فيذكر أن ذهابهم كان إلى منطقة صيد مجدبة، غرّر بهم من وصفـــها لهم، حيث لا صيد ولا عشب.

وبينما هم يبحثون واليأس كاد يسيطر عليهم، ظهرت لهـــم الحمـــر الوحشية، ولكن دون جدوى لأنهن هربن منذ أن سمعن بنا ورأيننا.

وأنهى رسالته وجولته الأخيرة بالحمد لله على كل حال، وهو حمـــد يدل على إيمان صاحبه وحسن توكله على خالقه.

وقد استخدم الكاتب كلمات تدل على الشعور بالفشل والإخفـــاق: والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال.

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٦٧.

حول رسالة عبد الحميد الكاتب

في وصف الصيد

إن رسالة الصيد هذه، كتبها عبد الحميد ليخبر بها أمير المؤمنين، فربما يكون عبد الحميد على رأس جماعة قامت برحلة الصيد، أو أن عبد الحميد كتب هذه الرسالة على لسان ولي العهد أو أحد الولاة ليخبر بها أمير المؤمنين، أو أن عبد الحميد كتبها ليظهر قدرته في الفن الإنشائي.

أما الرأي الأول: فربما يؤيده ما ورد من ضمير المتكلم المفرد عندما قال: (فأمرت بإرسالها على الثقة في محضرها)، ولكن لا يوجد دليل قاطع على أن هذا الضمير يعود على عبد الحميد.

أما الرأي الثاني: فلا دليل يؤكده أيضاً.

أما الرأي الثالث: فربما يكاد يكون هو الأقرب للحقيقة، لأنه بعد المقدمة يقرر عبد الحميد نوعية الجوارح والضواري ويمنحها الصفات المثالية، ثم يتحدث عن الخيل في وصف موجز ... إلى آخر وصف الرحلة، "فالذي يصفه عبد الحميد ليس منظر صيد بسيطاً، وإنما هو يحاول الاستقصاء والتركيب، في كل جزء من أجزاء المنظر وأدواته، حتى ليخيل إلينا أنه يتعمد ذلك ليدلنا على مدى براعته في الوصف الدقيق الشمولي"(١).

ويكثر الخيال في رسالة عبد الحميد: "هكذا راح الخيال يستدعي الصور، ويبدأ بصورة الجوارح والضواري، فيمعن في وصفها شكلاً وخبرة، في دقة كاملة، ويتبع ذلك بوصف نفائس الخيل في نجابتها وجريها وصلابتها، وينتقل إلى وصف السير والطلب ..."(٢).

---

(١) عباس، د. إحسان، عبد الحميد الكاتب، ص: ١٢٤.

(٢) منصور، سعيد، الفن الشعري، ص: ٢٢٣.

ونلاحظ أن خلق الكاتب الإسلامي لا يفارقه في رسالته؛ فنراه يختم فقراته بذكر الله، مع إيراد الصفات الدالة على عظمة الخالق والتي دائما يستشعرها الكاتب.

كما نلاحظ أن الرسالة بدأت بالدعاء من غير تحميد.

وتعتبر هذه الرسالة من رسائل عبد الحميد المطولة، والتي أسهب فيها بوصف رحلة الصيد من أولها إلى آخرها، **ويظهر في هذه الرسالة:**

١- **التوازن بين الجمل في فقرات الرسالة المختلفة:**

من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة.

٢- **السجع:** مثل: وتناول الأرب، ونهاية الطرب،

الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة.

فتلألأت الأشجار، وضحك النوّار، وانجلت الأبصار.

٣- **التضاد:** كقوله: العود، البدء.

٤- **الترادف:** مثل: البصر، النظر.

لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص.

٥- **المفعول المطلق:** كما في: تحف حفيف الريح.

تسف الأرض سفاً.

مزقتها تمزيق الريح.

٦- **اسم الفاعل:** كقوله: كاشفة، طالبة، حارشة، صالح، هاتف، راكض، طامح، سانح.

٧- **اسم التفضيل:** مثل: أثقف، أكرم، أعظم، أحسن، أطول.

٨- **الصور والتشبيه:** كقوله: من ابتسام نور الشمس، ضحك النوّار.

٩- **الحال:** كقوله: صائدة، كاسرة، ضارية، طالعة، مسفرة، نشاطاً، انبساطاً.

رسالة لعبد الحميد الكاتب:

تحميد في فتح

ولعبد الحميد الكاتب في فتح يعظّم أمة الإسلام بمحمـــد صلـــى الله عليه وسلم:

"أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام دينا، رضى شرائعه، وبيّن أحكامه ونوّر هداه، ثم كنفه بالعز المؤيد، وأيـــده بـــالظفر القـــاهر، وآزره بالسعادة المنتجبة، وجعل من قام به داعياً إليه، من جنده الغالبين، وأنصـــاره المسلّطين، كلما قهر بهم مناوئاً أورثهم رباعهم المأهولة، وأموالهـــم الثريـــة، ودارهم الفسيحة، ودولتهم المطولة، أمراً حتمه على نفسه، ثم جعـــل مـــن عاندهم، وابتغى غير سبيلهم مسلماً قد استهوته ذلة الكفر بظُلَمها، وحـــيرة الجهالة بحوارها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إبـــاءً، ازداد الحق إليهم ازدلافاً، وعليهم عكوفاً، وفيهم إقامة إلى أن يحل بهم عز الغلبـــة، ونجاة المجتاز، داعين فيما شوقهم إليه، محافظين على ما ندبهم له، قد بذلـــوا في طاعة الله دماءهم، وقبلوا المعروض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنـــة، محمودٌ صبرهم، مسهّل بهم عزمهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذي أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بما حفظ له مـــن أمور أمته، أن اختار لمواريث نبوته، ما أصار إلى أمير المؤمنين من تطويقه مـــا حمل، بحسن نهوض به وشح عليه، ومنافسة فيه، أن فعل وفعل.

الحمد لله الذي تمم وعده لرسوله، وخليفته في أمة نبيه، مسدداً لـــه فيما اعتزم عليه، والحمد لله المعز لدينه، المتولى نصر أمة نبيه، المتخلى عمـــن عاداهم وناوأهم، حمداً يزيد به من رضا شكره، وحمداً يعلو حمد الحـــامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف، وجلت أياديه فلا تحصى،

الذي حملنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك، وإليه يرغب، إنه على كل شيء قدير"[1].

تعتبر هذه الرسالة من أكثر رسائل عبد الحميد الكاتب التي ظهر فيها التحميد.

حيث تكرر التحميد بداية كل فقرة، ونرى أنه في التحميد وما جاء في هذه الرسالة، دلالة على شخصية عبد الحميد الإسلامية، وهذه الرسالة جزؤها الأول تحميد وتمجيد لله عز وجل، والجزء الثاني تحميد وتمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم.

وأرى أن عبد الحميد قد أطنب في التحميد في فصول هذه الرسالة.

ويبدو لنا أن عبد الحميد متأثر بالأسلوب القرآني في نسج عباراته مثل:

اصطفى الإسلام ديناً – مأخوذة من: "ورضيت لكم الإسلام ديناً"[2].

كما استخدم الحال مثل: داعين، محافظين، مسدداً.

أما السجع: فقد ورد نادراً.

كما ورد التوازن: رباعهم المأهولة، وأموالهم الثرية، ودارهم الفسيحة.

ومن التوازن مع الترادف قوله: كنفه بالعز المؤيد، وأيده بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المنتجبة.

ونلاحظ أن نهايات الجمل أكثرها انتهت بالمضاف إلى ضمير، أو الجار والمجرور، أو الصفة.

---

(١) صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ص: ٤٧٠ – ٤٧١.

(٢) سورة المائدة، آية ٣.

وقد عرض عبد الحميد من خلال تحميده بعض الجمل التقريرية.

قولـــه: الإسلام دين الله الذي رضيه لعباده المسلمين.

وقولـــه: مصير من التـــزم بدين الله وشرائعه.

وقولـــه: الدفاع عن الإسلام والعقيدة.

وقولـــه: تمجيد للنبي صلى الله عليه وسلم لحفظ الأمانة.

وأستطيع القول هنا: إن رسائل عبد الحميد في التحميد قد تنـــــدرج تحت الرسائل الدينية.

... وبعـــد:

فهذا هو ترسل عبد الحميد عرضته من خلال مواقف مختلفة، فبعد أن تحدثت عن سيرته والتي هي مدخل لترسله، تحدثت عن ترســـله وصفاتـــه، وميزات أسلوبه، ثم ظهرت هذه الميزات من خلال نماذج تطبيقيـــة منوعـــة لأنماط مختلفة من الرسائل الديوانية والإخوانية والدينية والأدبية.

لقد عرضت نماذج من رسائله بنصها الكـــامل، بعـــد أن جزأتهـــا على شكل فقرات ضمن أفكار معينة، وبعد ذلك قمـــت بـــالتحدث عـــن الأفكار الواردة والجزئية لكـــل فكـــرة عامـــة، ثم الخصـــائص الأســـلوبية لكل رسالة.

لقد أظهرت هذه النماذج التـــزام عبد الحميد بالصفات الأســـلوبية العامة التي يتميز فيها أسلوبه عن غيره، وهذا الالتـــزام كـــان في أغلـــب الصفات موزعاً على أكثر النماذج.

فالإطناب والتوازن والترادف كان مسيطراً على أكثر رسائله، أمـــا الحال والسجع والتحميد فلم يظهر في جميع الرسائل.

لقد بينت الرسائل مقدرة عبد الحميـــد اللغويـــة الفائقـــة، لتـــدل دلالة واضحة على تمكنه من لغته، التي حولها إلى فن بليغ ميز ترســـله عـــن غيره، فأنا أرى أن عبد الحميد استطاع أن يتقن اللغة العربية مـــن حيـــث مفرداتها وقواعدها وبلاغتها ...، إلى درجة أهلته أن يتزعم المكانة المرموقـــة لفن الترسل من الجاهلية وحتى عصره.

الفصل الثالث

ابــــن العميـــد : **نسبه، حياته، أخلاقه، ثقافته**

ترســل ابــن العميـــد : **ميزات ترسل عصر ابن العميد**

ميزات ترسل ابن العميد

ترســل ابــن العميـــد

في ميــزان النقـــد : **نماذج من ترسله وكتاباته وأشعاره**

ابن العميد

نسبه، حياته، أخلاقه، ثقافته:

هو أبو الفضل محمد بن الحسين[1] (العميد) بن محمد الكاتب[2]. لقب بابن العميد[3]، ولد نحو سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢م) في مدينة قم بفارس، فهو فارسي الأصل شيعي المذهب، إمامي مثل أمرائه البويهيين[4]، حيث وزر لركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الري سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)[5]، وكان والده في هذه الفترة وزيراً للملك السعيد نصر بن أحمد الساماني[6]، ولما ثار حسنويه بن الحسن الكردي بنواحي الدينور، بعث ركن الدولة لقتاله جيشاً بقيادة ابن العميد، فلما وصل إلى همذان اشتد عليه مرض النقرس (ألم المفاصل)، والقولنج (الإمساك المزمن)؛ فتوفي سنة ٣٦٠ هـ

---

(١) ورد أن والده هو (الحسن) وليس الحسين عند:

- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م، ج ٢، ص: ٥٠٠.
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مطبعة الاعتماد، ط ٥، ١٩٣٠م، ص: ١٧٨.

(٢) الصابئ، هلال بن المحسن، غرر البلاغة، (١ – ٢)، دار الكلمة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م، ص: ٣٢.

(٣) "كان أبوه كاتباً فذاً، كتب لما كان بن كاكي، ثم للسامانيين، وهم الذين لقبوه بلقب العميد، كعادة الخراسانيين في تعظيم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل"، ينظر: ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ص: ٦٥٥.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٦٥٥.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٦٥٥.

- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ط ١، ج ٢، ص: ٥٠٠.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٠٠.

(آخر ٩٧٠م)[١]، ومنهم من جعل وفاته في الري، وقيـــل في بغـــداد[٢]، ومنهم من يجعل سنة وفاتـــه (٣٥٩ هــــ)[٣]، ومنـــهم مـــن يجعلـــها سنة ٣٦٦ هــ[٤]، كان أبـــوه ذا فضـــل وأدب، ومترســـلاً بليغـــاً، مـــن كبار كتاب الدولة السامانية، ولأبيه دور كبـــير في تأسـيس دولـــة بـــني بويه بفارس.

وكان للعميد دوره في تنشئة ولده محمد، الذي لقب فيما بعد بـــابن العميد، "فنشّأه على الأدب ودرّبه في الكتابة، وغـــذّاه بـــالعلم، فـــبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم"[٥]، إضافة إلى علوم الطبيعـــة والهندسة[٦]، والتاريخ[٧]، وعلوم الحكمة[٨]، والنحو والعروض، واهتـــدى إلى الاشتقاق، والاستعارات، وحفظ معظم دواوين شعراء الجاهلية والإســـلام، والقرآن الكريم ومشكله ومتشابهه[٩]، وله معرفة باختلاف فقهاء الأمصـــار، وله علم بغرائب من العلوم الغامضة كعلوم الحيل (الميكانيكا، والحركـــات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مركز الأثقال)[١٠]، وكان من أئمة البلاغـــة في زمانه حتى قيل "فتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بـــابن العميـــد"[١١]،

---

(١) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ط ١، ج ٢، ص: ٥٠٠.

(٢) (٣) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٤، مكتبة النهضة المصرية، ص: ١٩٤.

(٤) عطا الله، رشيد يوسف، تاريخ الآداب العربي، مؤسسة عز الدين، ط ١، م ١، ص: ٣٧٢.

(٥) الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مطبعة الاعتماد، ط ٥، ص: ١٧٨.

(٦) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص: ٦٤٢.

(٧) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ج ٢، ص: ٥٠٠.

(٨) الإسكندري، أحمد، الوسيط في الأدب العربي، ص: ٢٠٩.

(٩) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ط ١، ١٩٩٣م، المؤسسة الجامعية للدراســـات والنشر والتوزيع، ص: ١٥٦.

(١٠) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨، ص: ٢٠٦ – ٢٠٧.

(١١) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج ٤، ص: ٣٠١.

فلذلك فابن العميد أديب وكاتب، وشاعر، ولغوي، وحكيم، وفلكي، وسياسي ووزير[١]، حيث "استقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة البويهي"[٢].

لقب بالجاحظ الأخير (الثاني)؛ لأنه يشبه الجاحظ عمرو بن بحر في فنه ومقدرته الكتابية، والأستاذ؛ (وهو لقب رفيع يدل على علو مكانته، وهو مرتبة علمية عالية في ذلك الوقت، وبالرئيس؛[٣] لرئاسته وتقدمه على من سواه في عصره، ولسان المشرق؛[٤] لتفوقه في مقدرته الكتابية في بلاد الشرق الإسلامي، وله مجموعة من الرسائل الديوانية والإخوانية، وله كتاب (المذهب في البلاغات)[٥].

كان ذكياً بعيد النظر حسن التدبير، مغرماً باقتناء الكتب، شديد الحرص على مطالعتها، "وكان ابن العميد أشبه بدائرة معارف يختزن من العلوم أكثر ما أحاط به بمجتمعه"[٦]، وكان قليل الكلام، نزر الحديث، حسن العشرة، طاهر الأخلاق، نزيه النفس[٧]، مع "لين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمور الحرب"[٨]، وكان يصون مجلسه عن لخوض في مسائل الخلاف في الدين، و "ما عُدَّت عليه هفوة مع صديق، وما

---

(١) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، ج ٩، ص: ٢٥٧.

(٢) الداية، محمد رضوان، أعلام الأدب العباسي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٠م، ص: ١٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص: ١٦٥.

– ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص: ٦٥٦.

(٤) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٥٠.

(٥) شيخ موسى، محمد خير، حركة التأليف في والكتابة الكُتّاب ومصادر نقد الترسل والكتابة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٧٢، ج ٣، ص: ٥١٢.

(٦) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ١، ص: ١٥٨.

(٧) المرجع السابق، ص: ١٦٠.

(٨) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص: ٦٥٦.

كان ممن يخرج على حقوق الصداقة"[1]، ثم إن نفسه عظيمة لا تكـــره ولا تبغض ... لأنه يعطي ولا يتوقع من غيره العطاء"[2].

ومما قاله ابن العميد من عبارات وأشعار، تنبئ عن تمكنه من اللغـــة العربية وسعة ثقافته، فانتشرت هذه الأقوال حتى غدت أمثالاً وحِكماً، وممـــا قاله:

"خير الكلام ما أغناك جِده، وألهاك هزله"[3].

ومن قوله في الغزل[4]:

ظلت تظللـــني مـــن الشـــمس	نفس أعز علـــي مـــن نفســـي
فأقول: واعجباً، ومن عجـــبٍ	شمس تظللـــني مـــن الشـــمس

ومن شعره الرقيق قوله[5]:

قد ذبت غير حشاشـــة ودمـــاء	ما بين حر هوى وحـــر هـــواء
واستبق بعض حشاشتي فلعلـــني	يوماً أقيك بهـــا مـــن الأســـواء

وقال أيضاً[6]:

قلـــبي دامٍ بـــه نـــدوب	يكـــاد ممـــا بـــه يـــذوب
قد كنت أخفي الوشاة جـــهدي	فنـــمَّ مـــني بـــه الوجيـــب

(١) (٢) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٥٣.

(٣) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، لطائف اللطف، دار المسيرة، بـــيروت، ص: ٦٧.

(٤) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٣، ص: ١٨٢.

(٥) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، ج ٢، ص: ٢٧١.

(٦) أبو حيان، التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، أخلاق الوزيرين، ص: ١٧٥.

ومن شعره قوله[1]:

آخِ الرجالَ من الأبا ... عِد، والأقاربُ لا تقارب

إن الأقاربَ كالعقا ... رِب، بل أضرُّ مِنَ العقارِب

وقوله[2]:

وللرأي زلاّت يظل بها الفتى ... مُركَّبةً فوق الثنايا أنامله

وقد غدا ابن العميد محط إعجاب الكثيرين الذين أثنوا عليه، ومما قيل فيه: "بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"[3].

وسأل ابن العميد الصاحب بن عباد بعد عودته من بغداد: كيف وجدت بغداد؟ فقال الصاحب: "بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد"[4]، يقصد ابن العميد.

وقيل عنه: "ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عرباً أقحاحاً نشأوا في تلك الأرض [أرض الري وما حولها] فنسبوا إليها"[5]، كما قيل: "وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وتأصل فيه بالدرس"[6]، وإن أحسن ما كتب ابن العميد

---

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٣، ص: ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ١٨٤.

(٣) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، تحقيق مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ط ١، ١٩٨٣م، ص: ١٨٣.

- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ٢٢٨.

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج ٣، ط ٣، ص: ٦١.

(٤) عطا الله، رشيد يوسف، تاريخ الآداب العربية، مؤسسة عز الدين، مجلد ١، ص: ٣٧٢.

- عبود، مارون، أدب العرب، دار الثقافة، ١٩٦٠م، ص: ٣٠٣.

(٥) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٥١.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٥١.

رسائله في الإخوانيات[1]، وقد مدح المتنبي ابن العميد فقـــال في قصيدتـــه الرائية[2]:

من مبلغُ الأعرابِ أني بعدهُـــم | شاهدتُ رسطاليسَ والاسـكندرا
وسمعت بطليموسَ دارسَ كتبـــهُ | متملكـــاً، متبديـــاً، متحضـــرا
ولقيتُ كل الفــــاضلينَ كأنمـــا | ردّ الإلهُ نفوسَـــهم والأعصُـــرا

ويقول في قصيدته الدالية[3]:

عـــربيٌ لســـانه، فلســـفيٌ | رأيـــهُ، فارســـيةٌ أعيـــادُه
خلق اللهُ أفصـــحَ النـــاسِ طُـــراً | في بـــلادٍ أعرابـــهُ أكـــرادُه

ومدحه الصاحب بن عباد في قوله من قصيدة[4]:

وندى ابنُ العميـــدِ إني عميـــدٌ | مـــن هواهـــا آليَّـــةَ الأمجـــاد
فهو إن جاد ضنَّ حـــاتم طـــيٌ | وهو إن قالَ قـــلْ قُـــسٌ إيـــادِ
أقبل العيـــدُ يســـتعيدُ حـــلاهُ | مـــن عـــلاهُ العزيـــزة الأنـــداد
إن خيرَ المـــدّاحِ مَـــنْ مَدَحَتْـــهُ | شعراءُ البـــلادِ في كـــل نـــاد

وحصل أن أبا حيان التوحيدي لم ينل من ابن العميد ما أمل، فهاجمه في كتاباته بشدة، وكان مما قاله ويقصد ابن العميد: "كان يظهر حلماً تحتـــه سفه، ويدعي علماً هو به جاهل"[5]، وقوله: "ويتشبع بالهندسة وهو منـــها

---

(١) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٥٣.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، ج ٣، ص: ١٩٠.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦٠.
- المتنبي، ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، ص: ٥٢٥ – ٥٢٦.

(٣) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٨ ، ص: ٢٠٧.
- المتنبي، ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، ص: ٥٢٧ – ٥٣٠.

(٤) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦١.

(٥) أبو حيان، التوحيدي، علي بن محمد بن عباس، أخلاق الوزيرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ١٦٤.

بعيد"[1]، وقوله: "وكان مع هذا سيئ السيرة، قليل الرحمة، شديد القسوة..."[2].

ثم يعود أبو حيان التوحيدي فيقول معترفاً بحقيقة كل من ابن العميد والصاحب ابن عباد :"وابن عباد – حفظك الله – ليس بصغير القدر، وابن العميد لم يكن خامل الذكر، وما فيهما إلا من هو غرة زمانه، وتاريخ دهره، لنباهته وصيته، وطول أيامه، وامتداد دولته ..."[3].

ثم يقول: "ولولا أن هذين الرجلين، أعني ابن عباد وابن العميد كانا كبيري زمانهما، وإليهما انتهت الأمور، ... وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا، وكانا بحيث يُنْشَر الحسن منهما نشراً، ويؤثر القبيح منهما أثراً، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع، ولا انحي عليهما بهذا الحدّ "[4].

وأورد زكي مبارك: "فليست الكتابة عن ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به، ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكُتّاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية، يرمي بها كما يرمي البركان بأقباس الهلاك، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل، وهو في رقته وجزالته وغضبه، وحنانه، عبقري لا يعبث يرجع الحديث المعاد، وإنما يجدّ بإبداع الرأي الصائب والقول الرصين"[5].

ثم يردف قائلاً: "إن ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه"[6].

---

(١) أبو حيان، التوحيدي، علي بن محمد بن عباس، أخلاق الوزيرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ١٦٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص: ١٦٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٦٥.

(٥) مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، ج ٢، ط ٢، ص: ٢٠٢.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٠٣.

الميزات العامة للترسُّل

عصر ابن العميد

بعد حديثي عن ترسل ابن العميد، يجدر بي أن أتحدث عن ميزات الترسل بشكل عام للعصر الذي عاش فيه ابن العميد، فمن هذه الميزات[1]:

١- شيوع السجع والإطناب، مع قلة في الجناس والطباق.

٢- تضمين الرسائل الحِكم والجوامع والأمثال والأشعار، والإشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية، والملح الفكاهية، خاصة في الرسائل الإخوانية.

٣- أغرموا بالخيال الشعري، واستخدموا صوره، حتى صار كلامهم والشعر سواء، لولا أنه غير موزون، وبالقوافي الاستشهادية، حتى كان يصل في بعض الأحيان قدر النثر، ثم انتقلوا إلى ترصيع الكتاب بالشعر، في كل فقرة بشطر، وساعدهم على ذلك أن أكثرهم كانوا كتّاباً وشعراء.

٤- أكثروا من التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء، وبالإطناب لهم في جمل الدعاء والتفخيم، وذلك تأثراً بالفرس، وتعدوا في ذلك إلى الإخوان، ونتيجة لهذا، جاء الكُتّاب من التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم تنزيهاً لها، كقولهم عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية، أو السيرة النبوية، وعن ديوان الإنشاء بالديوان الشريف، ومن الكُتّاب بالشيخ، أو الرئيس، أو الأستاذ، أو العميد، أو الصاحب.

---

(١) بيومي، السباعي، تاريخ الأدب العربي، ج ٣، ط ٢، ١٩٥٨م، ص: ١٤٠ – ١٤٦.

٥- اتخذوا للرسائل نمطاً خاصاً بها، كالبدء بمخاطبة المرسَل إليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه إن كان منه كتاب، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب، أو قد تفتتح بالدعاء، كما في رسالة ابن العميد في شهر رمضان من هذا الفصل. ثم ينتقلوا إلى المقصود، بنفس هذه الصيغة غالباً، أو بصيغة الخطاب في بعض الأحيان.

وبذلك يعتبر عصر ابن العميد "عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر"[(١)]، **ويرصد بعضهم الخصائص التالية**[(٢)]:

١- وجد بعض الكُتّاب من ابتعد عن التقليد، وانطلق على السجية في إبراز المعنى، دون الالتفاف إلى جمال الصورة أو غيرها.

٢- المبالغة في الزخرف والإسراف في الزينة.

٣- الدقة في الخيال والعمق في التفكير، والتسلسل في المعاني، وتأثر الكتابة عند أهل خراسان وجرجان وطبرستان والعراق بالثقافة الفارسية، وانعكس ذلك على الكتب التي ألفوها في صناعة الإنشاء.

٤- إقحام الشعر في الرسائل على سبيل التضمين والاستشهاد، أو على سبيل دفع السأم والملل كترسل ابن العميد والصاحب بن عباد. وهذا ما سنراه في رسالة ابن العميد في شهر رمضان أيضاً.

٥- شملت الكتابة الإنشائية كل الموضوعات التي كان الشعر يتناولها، من مديح وهجاء، أو اعتذار أو غزل أو تهنئة.

٦- تحولت الكتابة في آخر عهدها في هذا العصر إلى حرفة يتكسب منها الكاتب في سبيل العيش، وتحولت من حلبة للكاتب، إلى طريق من طرق المكاسب، فكثر التقليد، وقل الاهتمام بقواعد اللغة.

---

(١) الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ط ٥، ص: ١٧٩.

(٢) أبو الخشب، إبراهيم علي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار الفكر، ص: ٣٧٣ - ٣٧٧.

وجدت الكتابة القصصية أو كتابة المقامات، مظهراً من مظاهر تدارك الخطـر المحدق بها أو الضعف اللغوي.

هذه المزايا وجدت في مشرق الخلافة العباسية، لكن في مغربها، كـان التأثر والامتزاج بالثقافات والحضارات الواردة أقل منه في مشرقها، حيـث اللسان العربي فصيح، والبيان العربي سليم، فلم يحدث الضعـف في مصـر والشام وبلاد المغرب؛ لوجود العرب الأقحاح من جهة، ولعدم الاختـلاط بالأعاجم كبلاد المشرق من جهة أخرى، بالإضافة إلى تشجيع الحكومـات الإسلامية العلم، وبناء المدارس، وتقريبهم للأدباء، كما حدث عند الفاطميين والحمرانيين وغيرهم.

لقد أطلق على مدرسة الكتابة الفنية والترسّـل الإنشـائي في هـذا العصر، مدرسة السجع والبديع، **والتي تتلخص[1] ميزاتها بما يأتي:**

تغلب السجع بأنواعه المختلفة على رسائل هـذه المدرسـة، حـتى صار صناعة فنية أصيلة لتجميل العبارة وزخرفة الأسـاليب، بالإضافـة إلى ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق والتوريـة، مـع عنصـر الخيـال كالتشبيه والاستعارة، وقد ذاع السجع وشاع على هذه الأسـاليب الـتي اقتربت من أسلوب الشعر، مما جعل الكُتّاب يرصعون الأساليب بالأبيـات الشعرية، كما رصعوها بآيات الله البينات، والأحاديث الشريفة، والحكـم البالغة، والأمثال السائدة، والإشارات التاريخيـة، والأحـداث الكـبرى، والقصص الطوال، كما سنلحظ في رسائل ابن العميد فيما بعد؛ لأنـه هـو رائد هذه المدرسة.

---

(١) حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب، المطبعة الفنية الحديثة، ص: ١٦٠.

فن الترسل عند ابن العميد

يعتبر ابن العميد إمام مدرسة السجع والبديع في عصره، حيث مثلها أصدق تمثيل، فأسلوبه يتصف بما يأتي:

١- استخدم ابن العميد السجع، والتوازن بين السجعات[١]، مع توخي السجع القصير الفقرات[٢].

٢- كما استخدم المحسنات البديعية، كالجناس والطباق والتورية[٣]، وتكلف في ذكر المجاز والاستعارة والتشبيه[٤].

٣- كثرة التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة[٥].

٤- استعمل ألفاظ التعظيم والتبجيل، وأدخل بعض العبارات الفلسفية[٦].

٥- كما استعمل الترادف والإطناب[٧].

٦- البراعة في حسن استعمال حروف الجر وسائر الروابط الأخرى[٨].

٧- أظهر في الأسلوب الذي اتبعه الإغراب في الإشارات التاريخية واللغوية والعلمية[٩].

---

(١) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص: ٦٥٧.

(٢) عبود، مارون، أدب العرب، ص: ٣٠٢.

(٣) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ص: ٦٥٧.

(٤) (٥) (٦) أمين، أحمد، (وزملاؤه)، المفصل في تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص: ٨٩.

- ينظر: كرو، أبو القاسم محمد (وزميله)، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، دار مكتبة الحياة، ط ٢، ص: ٢٠٤.

(٧) (٨) (٩) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص: ٧١٥ – ٧١٧.

٨- تأثر ابن العميد بموسيقا الشعر وأوزانه، فـاهتم بتناسـق الجمـل، وتساوي الفقرات، واتحاد حرف الروي، فلذلك كثيراً ما كان ابـن العميد يضمن رسائله الأشعار المختارة، أو يضع فيها من شعره[1].

لقد اعتبر ابن العميد أستاذ مذهب التصنيع، لأنه أول كاتب احتكـم إلى السجع في كتابته، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصويـر[2]، وأكبرَ الشعراءُ في ابن العميد بلاغته وفصاحته، فكان مما قاله فيه المتنبي:

عـربي لسـانه فلسـفي رأيـه فارسـية أعيـاده[3]

وقوله أيضاً:

قطف الرجال القول وقت نباتـه وقطفت أنت القول لما نـوّرا[4]

ويرى بعضهم أن ابن العميد "يمزج السجع بغـير السـجع مزجـاً معتدلاً، أما سجعه فأكثره من القصير الفقرات الحسن الازدواج"[5]، وأنـه يكثر من الطباق والإطناب في بعض رسائله مـع شـيء مـن الاسـتعارة والتشبيه[6]، كما سنبين ذلك فيما بعد.

وارتأى بعضهم أن مذهب ابن العميد في الكتابة هو "مزيـج مـن أسلوب ابن المقفع وأسلوب الجاحظ مع التوسـع في الصناعـة والميـل إلى

---

(١) أبو الخشب، إبراهيم علي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار الفكر العـربي، ص: ٣٧١ / ٣٧٤.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ٢٠٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٠٧.

- المتنبي، ديوان المتنبي، دار الجيل، ص: ٥٢٧.

(٤) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ط ١، ص: ١٥٧.

- المتنبي، ديوان المتنبي، دار الجيل، ص: ٥٢٤.

(٥) المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص: ٢٥٣.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٥٣.

التكلف"[1]، وعده آخرون أستاذ مذهب التجميل والتصنيع[2]، كما قيل عنه بأنه أقل التـــزاماً للمسجوع، وأقربهم إلى المطبوع"[3]، وذلك إذا ما قـــورن بمن جاء بعده بشكل خاص.

وأضاف السباعي بيومي إلى كثير مما ذكره سابقوه من أسلوب ابـــن العميد قوله: "والعناية بالألفاظ لم تشغله عن العناية بالمعاني"[4].

ويرى عمر فروخ أن في نثر ابن العميد شيئاً من الغموض؛ مـــرده إلى الإسهاب، وإلى كثرة ما يجمعه في رسائله من فنون المعرفـــة، والإشـــارات التاريخية، واللغوية، وإلى تداخل جمله أحياناً"[5].

(١) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص: ٥٠١.

(٢) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ط ١، ص: ١٥٢.

(٣) الإسكندري، أحمد، الوسيط في الأدب العربي، ص: ٢١٠ – ٢١١.

(٤) بيومي، السباعي، تاريخ الأدب العربي، ج ٣، ط ٢، ١٩٥٨م، ص: ١٣٩.

(٥) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص: ٥٠١.

ترسُّل ابن العميد في ميزان النقد

نماذج من ترسّله وكتاباته وأشعاره

أولاً: رسالة ابن العميد لابن بلكا:

أرسل ابن العميد رسالة إلى أحد قواد ركن الدولة البويهي ويسمى ابن بلكا ونداد بن خورشيد، حيث خرج على ولائه، وتمرد بجيشه، فبدلاً من أن يرسّل إليه الجيش، أُرسل له برسالة كتبها ابن العميد، عمد فيها إلى الترغيب والترهيب، وبعد أن قرأها ابن بلكا عاد إلى رحاب الطاعة لركن الدولة.

"كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ... ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك، لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك: أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، أبسط يداً لاصطلامك[1] واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك، ضناً بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلاً لفيئتك[2] وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويغرب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك، بما لا ترتقبه أعداؤك،

---

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) فيئتك: فاء: رجع.

وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت، وسأقيم على رسمي[1] في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن، طمعاً في أنابتك، وتحكيماً لحسن الظن بك، فلست اعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجاً عليك واستدراجاً لك، فإن شاء الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك، فإنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير"[2].

وفي فصل منها يقول:

"وزعمت أنك في طرف من الطاعة، بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها، وحلبت شطريها، فنشدتك الله لما صدفت عما سألتك، كيف وجدت ما زلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء عذي، وماء روي، ومهاد وطي، وكن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف، ويكنفك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق الحدثان، عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد العسرة، وأثريت بعد المتربة، واتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات، وخفقت فوقك الرايات، ووطئ عقبك الرجال، وتعلقت بك الآمال، وصرت تكاثر ويكاثر بك، وتشير ويشار إليك، ويذكر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك، ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عددت، والخلف مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب،

---

(١) رسمي: الرسم: الخطيئة.

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦٣.

لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل نعم! كذلك، فهو والله أكثف ظلالك في العاجلة، وأروحها في الآجلة، إن أقمت على المحايدة والعنود، ووقفت على المشاقة والجحود.

ومنها – تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي، فستنكرها، والمس جسدك، وانظر هل يحس؟ واجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله"(١).

ولهذه الرسالة ميزات لا تنكر وتعد غاية في حسن السياسة والرياسة ومنها:

١- تصنف هذه الرسالة ضمن الرسائل الديوانية الرسمية، فبدلاً من أن يرسل ركن الدولة البويهي جيشاً لردعه، أرسل له ابن العميد هذه الرسالة، التي فعلت بابن بلكا ما قد يعجز عنه السيف، فقد عمد "فيها إلى فنون من الترغيب والترهيب مستعملاً سلاح بلاغته وثقافته ودرايته بالنفس الإنسانية"(٢). وهنا يحضرني قول أبي فراس الحمداني:

إذا ما أنهض الأمراء جيشاً إلى الأعداء أنفذنا كتابا(٣)

٢- يقول الثعالبي ممتدحاً هذه الرسالة "وقد أجمع أهل البصيرة في الترسّل على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة، غرة كلامه، وواسطة عقده، وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام؟"(٤).

---

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦٤.

(٢) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص: ٤٠٨.

(٣) الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د. يوسف شكري، دار الجيل، بيروت، ص: ٢٤.

(٤) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦٣.

٣- ولقد قسّم ابن العميد رسالته إلى ثلاثة أقسام:

* **القسم الأول:** من كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك...وبالإجابة جدير: هذا القسم ضمنه ابن العميد نصائح وإرشادات وتوجيهات لعلها ترغب ابن بلكا بالعودة عما انصرف إليه، فابن العميد يركز على الترغيب بوسائل بلاغية وكلمات مؤثرة، وعبارات معبرة لعلها توقظ ابن بلكا وتعيده إلى رشده.

* **والقسم الثاني:** وزعمت أنك في طرف من الطاعة ... على المشاقة والجحود: لجأ ابن العميد في هذا الجزء إلى جمل وعبارات فيها نغمة الترهيب والتخويف، فبعد أن رغبه بالإياب ها هو يحذره من الاستمرار في ضلاله ومتابعة شيطان غيّه.

* **أما القسم الأخير:** من: تأمل حالك ... وآخر شأنك بأوله: في هذا القسم طلب ابن العميد من ابن بلكا أن يتخذ القرار المناسب، ولكن بعد أن يقف موقف المتأمل، والذي يستخدم كافة حواسه الجسمية والنفسية والعقلية، ليصل في النهاية إلى القرار الحكيم، وإلى الحكم الفصل في حياته ومستقبله.

وهنا أورد ما قاله الثعالبي: "بلغني عن بلكا (وربما يقصد ابن بلكا) – وكان آدب أمثاله – أنه يقول: والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه"[1].

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦٥.

٤- ويعتبر "هذا النمط من الكتابة الديوانية يمثل نموذجاً من البلاغة رفيع المستوى في ذلك العهد، ذلك أنهم كانوا يرون أن رسائل التهديد والوعيد هي طلائع من الأقلام يجب أن تتقدم طلائع السيوف"[١].

٥- يبدو في رسالته هذه اللهجة الخطابية البليغة كقوله: كيف وجدت ما زلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه، ألم تكن من الأول في ظل ظليل[٢].

٦- التزم السجع في هذه الرسالة، ووازن بين هذه السجعات، فإن كانت السجعة الأولى قصيرة جعل الثانية مثلها، وإن كانت طويلة جعل الثانية تماثلها في الطول: فمن سجعه:

* تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة.
* أيسرها يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية.
* أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك.
* وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك.
* فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب.
* ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت.
* كيف وجدت ما زلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟.
* إن أقمت على المحايدة والعنود، ووقفت على المشاقة والجحود.
* بفوت سريح، أو موت مريح.

---

(١) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ط ١، ص: ١٦٧.

(٢)المرجع السابق نفسه، ص: ١٦٧.

* سيطر الجناس على معظم نهايات هذه الجمل

٧- كما وجد في رسالته الجناس:

كالجناس الناقص: مكان مكين، حصن حصين، سابق سالف، كن كنين، العاجلة الآجلة، إليك عليك، يصحو يصفو.

٨- واستخدم ابن العميد الطباق ومنه قوله:

* طمع، يأس.
* إقبال، إعراض.
* أقدم، أؤخر.
* يذهب، يعود.
* يفسد، يصلح.
* يكدر، يصفو.
* الأمن، الخوف.
* اليسر، العسر.
* الاتساع، الضيق.

٩- كما اقتبس ابن العميد من القرآن الكريم ما زاد الأمر إشراقاً وبهاءً، وذلك عندما قال: أظل ذو ثلاث شعب، من قوله تعالى: (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب)[١]، وقوله تعالى: (لا ظليل ولا يغني من اللهب)[٢].

---

(١) سورة المرسلات، آية: ٣٠.

(٢) سورة المرسلات، آية: ٣١.

١٠- واستخدم ابن العميد في رسالته أيضاً ترادف الكلمات والجمل مثل:

يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية.

يحبط، يمحق.

لاصطلامك، واجتياحك.

العقل، اللب.

ضيقه، غمره.

قبح، سوء.

عززت، كثرت.

العوض، الخلف.

يؤوب، يثوب.

١١- لقد بدأ ابن العميد رسالته مباشرة بالخطاب والموضع دون بسملة أو حمدلة، ربما لان طبيعة الموضع تتطلب منه ذلك، لأن الموقف لا يحتاج إلى تقديم، بل الدخول في الموضوع مباشرة، ومع ذلك لا أرى مبرراً له، فكل كلام أو موضوع لا يبدأ صاحبه فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر.

١٢- في رسالته عندما قال: (ألم تكن من الأول في ظل ظليل ... وفي الحاضر ذكرك)، يحاول ابن العميد أن يذكره بالنعم التي كان يعيش فيها، مع شيء من العتاب الموحي والمؤثر.

١٣- وفي قوله: (فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويغرب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو)، جعل ابن العميد في هذه الجمل كمسوغات لابن بلكا في تصرفه الذي تصوره، وكأن ابن العميد يريد أن يطمئن ابن بلكا، ويوجد له العذر سلفاً إذا هو عاد إلى طاعة ولي أمره.

١٤- في نهاية القسم الأول والثاني، يعمد ابن العميد إلى تذكير ابن بلكـــا بالله عز وجل، فهو صاحب الهداية والرشاد، وهو على كل شــــيء قدير، وبالإجابة جدير، ثم نراه يقسم له في القسم الثاني من الرســالة، عندما يقول له مخاطبا: فهو والله أكثف ظلالك في العاجلة، وأروحها في الآجلة.

ثانياً: رسالة ابن العميد في شهر رمضان:

وهي مما كاتب به أبا العلاء السروري:

فصل من رسالة له إليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق إليه:

"كتابي – جعلني الله فداك– وأنا في كد وتعب، منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنق، ويزويه عن التبصر يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق (من البسيط):

ويترك الجاب[1] في شغلٍ عن الحقبِ ويقدحُ النارَ بين الجلدِ والعصبِ

(البحر البسيط)

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها:

سجوداً لدى الارطى كأن رؤوسَها علاها صداعٌ أو فواق يضورُها

(البحر الطويل)

وكما قال الفرزدق:

ليوم أتت دونَ الظلالِ شموسُه تظل المها صوراً جماجمُها تغلى

(البحر الطويل)

وكما قال مسكين الدارمي (من الطويل):

وهاجرةٍ ظلت كأن ظباءَها إذا ما أتّقتها بالقرونِ سجودُ

تلوذُ بشؤبوبٍ من الشمسِ فوقها كما لاذَ من وخزِ السنانِ طريدُ

(البحر الطويل)

---

(١) الجاب: القميص ونحوه.

ومَمْنُوٌّ بأيام تحاكى ظل الرمح طولا، وليال كإبهام القطـــاة قصــراً، ونوم كلا ولا قلة، وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطـــــائر المستحر خفة:

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامــةٌ فلمّا رجَوْها أقشــعتْ وتجلــت

وكنقر العصافيرِ وهـــي خائفــةٌ من النواطـــيرِ يـــانع الرطـــب

(البحر الطويل)

وأحمد الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيـــــني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه في أن يقرب علـــى القمـــر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقض مسافة فلكه ودائرتـه، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد علي غرة شوال فهي أسر الغرر عنـدي وأقرها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون عامر، وأضنى من قيس ابـــن ذريح، وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور، ويرسل علـــى رقاقته "من الرقة" التي يغشى العيون ضوؤها، ويحط من الأجســـام نوؤهـــا، كلفا يغمرها، وكسوفا يسترها، ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قــــد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنقـص النيرات من طرف الزند، ويبعث عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغـرى به الدود، ويبليه بالفار ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفـــه بـــالذر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا مـــن معاودتـــه، ويريحنا من دورته ويذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به، فعلة بالكتـــان ويصنع به صنعه بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئـه وهتك بطلوعه "ويرحم الله عبداً قال آميناً" وأستغفر الله جل وجهه مما قلتـه إن كرهه وأستعفيه من توفيقي لما يذمه، واسأله صفحاً يفيضه، وعفواً يسيفه،

وحالي بعدما شكوته صالحه، وعلى ما تحب وتهوى جارية، ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر"[1].

تعتبر هذه الرسالة:

* من أحسن رسائل ابن العميد في الإخوانيات.
* رسالته هذه في شهر رمضان هو مما لم يسبق إليه.
* هذه الرسالة لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة متميزة في بابها وموضوعها ونظمها[2].

أهم ميزات أسلوب ابن العميد في هذا الفصل من رسالته في شهر رمضان:

١- افتتحها بالدعاء، ووسطها بالتحميد والدعاء، وختمها بالاستغفار والدعاء والتحميد.

* وحيث قال في مطلعها: جعلني الله فداك، وفي وسطها قوله: وأحمد الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته.
* وفي نهايتها قال: مقتبساً من بيت شعر ينسب لمجنون ليلى: (ويرحم الله عبداً قال آمينا).
* ثم الاستغفار: استغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهته.
* ودعاؤه: وأسأله صفحاً يفيضه، وعفواً يسيغه.
* ثم التحميد والشكر: ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر.

٢- نستدل من هذه الرسالة أن ابن العميد كتب رسالته هذه في شهر رمضان، وفي فصل الصيف الحار، حيث يمر شهر رمضان في أيام شديدة الحرارة، يشكو الكاتب من حرّها، ويصفها بكلمات وأشعار

---

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٦١ – ١٦٢.
- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٦٤ – ٥٦٥.
(٢) المرجع السابق.

تظهر مدى تأثره من هذا الشهر، حيث الكد والتعب والجهد والنصب، حتى دواب وهوام الأرض لم تطق حرارة هذا الشهر.

٣- مع كل هذا الوصف لشهر رمضان، شهر العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، نرى الكاتب يظهر ندماً على ما بدر منه من كلمات، قد يظهر منها التبرم والسخط من هذا الشهر، فلذلك نرى الكاتب يسارع إلى التوبة وطلب الغفران من الله عز وجل.

٤- حتى الآية التي اقتبس منها، أو الأشعار التي ضمنها، كلها تسير في ركب الوصف المباشر لهذا الشهر، الذي جاء في فصل الصيف فصل الحرارة والمشقة.

٥- تردد الكاتب بالعودة إلى مائدة الله عز وجل، مستغفراً، وداعياً، وتائباً، وحامداً، كل ذلك يدل على الوقفات الإسلامية الصادقة في نفس الكاتب، والتي صبغت ابن العميد بالصبغة الإسلامية.

٦- ومن بين ما ورد في رسالته هذه من السجع — وإن وجد الجناس في بعضها – قوله:

* في كدٍ وتعبٍ منذ فارقت شعبان، وفي جهدٍ ونصبٍ من شهر رمضان.
* عن إمساك ساق، وإرسال ساق.
* ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته.
* وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته.
* كلفاً يغمرها، وكسوفاً يسترها.
* مغمور النور، مقمور الظهور.
* ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دورته.
* صفحاً يفيضه، وعفواً يسيغه.

والذي نلحظه من هذه الجمل المسجوعة أنها تتصف بصفة التوازن فيما بينها، سواء قصرت الجمل أو طالت.

٧- الاقتباس من القرآن الكريم في قوله: وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)[1].

٨ - من شعره في هذه الرسالة قوله:

ويترك الجاب في شغل عن الحقب ويقدح النار بين الجلد والعصب

وقوله:

سجوداً لدى الارطى كأن رؤوسها علاها صُداع أو فُواق يضورها

٩- التضمين: من ذلك قول الفرزدق:

ليوم أتت دون الظلال شموسه تظل المها صوراً جماجمها تغلي

ومنه كذلك شعر مسكين الدارمي:

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجود
تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذ من وخز السنان طريد

وقوله: (ويرحم الله عبداً قال آمينا).

---

(١) السجدة، آية: ٢١.

١٠ - ويظهر الترادف في الرسالة: ترادف كلمات وجمل:

* كد وتعب، جهد ونَصب.
* يقرب، يقصر.
* أضنى، أبلى.
* يغمرها، يسترها.
* يخلصنا من معاودته، ويريحنا من دورته.
* افتضح، تمتك.
* صفحاً، عفواً.
* تحب، تهوى.

١١- كما وجد الطباق: وأمثلة ذلك:

* إمساك، إرسال.
* طولاً، قصراً.

١٢- ومنها ما يجري مجرى المثل:

* وهي خائفة من النواطير يانع الرطب.
* أنحف من مجنون بني عامر.
* أضنى من قيس بن ذريح.
* أبلى من أسير الهجر.

١٣- الإغراب في الإرشادات اللغوية والعلمية:

* وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحنق، ويزويه عن التبصر.

ويترك الجاب في شغل عن الحقب   ويقدح النار بين الجلد والعصب

* وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ... وينقص مسافة فلكه ودائرته.

بالإضافة إلى الإشارات التاريخية:

* وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر.

ثالثاً: ومما كتبه من ترسل إلى ابن أبي عبد الله الطبري[1]:

الرسالة الأولى:

"وقفت على ما وصفت من برِّ مولانا الأمير لك، وتَوَفره بالفضل عليك، وإظهار جميل رأيه فيك، وما أنزله من عارفةٍ لديك؛ وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاية، وإنما العجَب أن يقصر شيء من مساعيه عن نيل المجد كله، وحِيازة الفضل بأجمعه؛ وقد رجوت أن يكون ما يغرسه من صنيعةٍ عندك أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للزيغ والنماء؛ فارْعَ ذلك، واركب في الخدمة طريقة تُبعدك من الملال، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال؛ فلأن تدعى من بعيد خيرُ من أن تقصى من قريب، وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب، ولا يعجبنك تأتى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطنابُ توقعا لمثلها؛ فربما هدمت ما بنته الأولى، وبضاعتك في الشرف مزجاة، وبالعقل يزم اللسان، ويرام السداد، فلا يستفزنك طربُ الكلام على ما يفسد تمييزك؛ والشفاعة تعرض لها فإنها مخلقة للجاه؛ فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها، وتحصل وزنها، وتطالع موضعها؛ فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة، وإلى الإسعاف هشة، فأظهر ما في نفسك غير محقق، ولا توهم أن عليك في الرد ما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك، ليخفّ كلامك، ولا يثقل على سامعة منك، أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد، فقد جمّل الله خصالك، وحسّن خلالك، وفضّلك في ذلك كله؛ لكني أنبه تنبيه المشارِك لك، وأعلم أن للذكرى موضعاً منك لطيفاً"[2].

---

(١) رجعت إلى مراجع متعددة. منها كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي، ولم استطع أن أجد ترجمة واضحة لأبي عبد الله الطبري صديق ابن العميد.

(٢) القيرواني، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، ج ٤٠، ص: ١٠٦٤ – ١٠٦٥.

وبعد الاطلاع على هذه الرسالة، فـــإنني اخــرج بالنتــائج التالية:

١- بدأ ابن العميد رســـالته إلى أبي عبـــد الله الطـــبري مباشـــرة دون بسملة أو تحميد أو تقديم، على غير ما كنا نلحظه عند عبد الحميـــد الكاتب. ربما يكون ذلك لقرب أبي عبد الله الطبري من ابن العميـــد وللصداقة الوثيقة بينهما، تجعله يخاطبه مباشرة دون مقدمات.

٢- يظهر من ترسل ابن العميد لأبي عبد الله الطبري، أن لأبي عبـــد الله الطبري مكانة خاصة ومنـــزلة معينة عند ابن العميد، حتى حصـــل على كل هذه النصائح والإرشادات والتوصيات، أو العتاب واللوم في بعضها كما سنرى.

٣- لم يحدد ابن العميد من هو الأمير المقصود في مطلع الرسالة، وطبعـــا هذا الأمير كان معروفا لدى ابن العميد وأبي عبد الله الطبري.

٤- في هذه الرسالة يمدح ابن العميد الأمير ويطلب من صاحبه أن يلـــزم طاعته وحسن صحبته.

٥- ومن بين الوصايا كذلك، والتي وصى بها ابن العميد صاحبه أبا عبـــد الله الطبري:

* **قولـــه**: عدم الإكثار من ملازمة الأمير حـــتى لا يمـــل الأمـــير صحبته.
* **وقولـــه**: حسن التصرف مع الأمير وتحكيم العقل في الأمور.
* **وقولـــه**: عدم السخط والغضب إذا لم يلب الأمير مطلبك.

٦- يقرر ابن العميد – في تواضع – أن ما يقوله لصاحبه هو مجرد تنبيـــه لطيف، وتذكير لخصال هي موجودة أصلا عنده.

٧- من السجع الذي أورده ابن العميد مع حسن الموازنة بين هذه الجمل قصيرها وطويلها:

* من برّ مولانا الأمير لك، وتوفره بالفضل عليك، وإظهار جميل رأيه فيك، وما أنزله من عارف لديك.
* أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للريع والنماء.
* حتى تعرف موقعها، وتحصل وزنها، وتطالع موضعها.
* في السرد وما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك.
* فقد جمل الله خصالك، وحسن خلالك.

٨- أما الطباق فقد ورد في جمل متفرقة منه:

* لك / عليك.
* ليس العجب / العجب.
* الإكثار / الإقلال.
* بعيد / قريب.
* يخف / يثقل.
* أقول / ما أقول.

٩- وأما الترادف فقد ظهر فيما يلي:

* كله / أجمعه.
* نيل / حيازة.
* الزكاء / الريع / النماء.
* الإسهاب / الإطناب.
* موقعها / موضعها.
* واعظ / مرشد.
* خصالك / خلالك.

الرسالة الثانية:

وما كتبه ابن العميد لأبي عبد الله الطبري أيضا:

"سألتني عمن شفني وجدي به، وشغفني حبي له، وزعمت أني لو شئت لذهلت عنه ولو أردت لاعتضت منه زعما، لعمر أبيك، ليس بمزعم كيف أسلوا عنه، وأنا أراه، وأنساه وهو لي تجاه؛ هو أغلب علي، وأقرب إلي، من أن يرخي لي عناني، أو يخليني واختياري، بعد اختلاطي بمسلكه، وانخراطي في سلكه، وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط، وساطه بدمي سائط، وهو جار مجرى الروح في الأعضاء، متنسم تنسم روح الهواء؛ إن ذهبت عنه رجعت إليه، وإن هربت منه وقعت عليه، وما أحب السلو عنه مع هناته، وما أوثر الخلو منه مع ملاته؛ هذا على أنه إن أقبل علي بمتني إقباله، وإن أعرض عني لم يطرقني خياله، يبعد عني مثاله، ويقرب من غيري نواله، ويرد عيني خاسئة، ويثني يدي خالية، وقد بسط آفات العيون المقاربة، وصدق مرامي الظنون الكاذبة، وصله ينذر بصده، وقربه يؤذن ببعده، يدني عندما ينزح، ويأسو مثل ما يجرح، محالته أحوال، وخلته خلال، وحكمه سجال، الحسن في عوارفه، والجمال من منائحه، والبهاء من أصوله وصفاته، والسناء من نعوته وسماته، اسمه مطابق لمعناه، وفحواه موافق لنجواه، يتشابه حالاه، ويتضارع قطراه، من حيث تلقاه يستنير، ومن حيث تنساه يستدير"[(1)].

هذه الرسالة فيما كتبه ابن العميد لصاحبه أبي عبد الله الطبري، **ويظهر فيها من الملحوظات ما يلي:**

١. هذه الرسالة تشبه الرسالة السابقة، من حيث البدء والختام والدخول مباشرة في الموضوع.

٢. هذه رسالة جوابية لرسالة من أبي عبد الله الطبري أو ردا على سؤال منه.

---

(١) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج ٤، دار الجيل، ص: ١٠٦٥ – ١٠٦٦.

٣. لم يبين لنا ابن العميد ما (أو من) الذي شغفه حبـــا وأذهلـــه، ولا يستطيع سلوه أو نسيانه، وبقي طوال الرسالة يتحدث عن صفاته دون أن يصرح به. وأنا أرى انه صديق أبي عبد الله الطبري لأن الرسالة مثبتة له.

٤. لعل عدم التصريح عن هذا الشيء؛ إما لأنه يخشى أن يعرفه النـــاس، أو للتعمية على الآخرين بقصد الإثارة الفكرية، أو غير ذلـــك، ومـــهما يكن فهو معروف على الأغلب لدى أبي عبد الله الطبري.

٥. لقد امتلأت هذه الرسالة (وكعادة ابن العميد) في أسلوبه بالســـجع القصير الجميل، وبالطباق والمترادفات وغير ذلك من أســـلوب التنميـــق والتزيين، فمن سجعه المتوازن في هذا المقام قوله:

* عمن شغفني وجدي به، وشغفني حبي له.
* ... لذهلت عنه، ... لاعتضت منه.
* وأنا أراه، ... وهو لي اتجاه.
* ... نائط، ... سائط، وهكذا.

٦. ومن الطباق الذي أورده:

* ذهبت، رجعت.
* أقبل علي، أعرض عني.
* قربه، بعده.
* يأسو، يجرح.

٧. ومن جميل المترادفات يورد:

* أسلو / أنساه.
* خلال / سجال.
* الحسن في عوارفه / الجمال من منائحه / البـــهاء مـــن أصولـــه وصفاته / والسناء من نعوته وسماته.
* مطابق / موافق.
* يتشابه / يتضارع.

الرسالة الثالثة:

وكتب إلى أبي عبد الله الطبري:

"كتابي وأنا بحالٍ لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرنّق صفوها النزاع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك، ويخلو ذرعي مع خلوف منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي، وقد حرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس ميت بلا نظام؟ وقد قرأت كتابك جعلني الله تعالى فداءك، فامتلأت سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما امدحها فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري"[1].

ومن الملحوظات التي يمكن رصدها لهذه الرسالة:

١- كثر الاستشهاد بها في مواضع مختلفة في الأدب العربي من خلال المؤلفات والدراسات، كدليل على بديع ترسل ابن العميد.

٢- هذه الرسالة الجوابية كانت من ابن العميد إلى صاحبه أبي عبد الله الطبري، تظهر مدى متانة العلاقة بين ابن العميد وصاحبه.

---

(١) القيرواني، إبراهيم بن علي بن الحصري، زهر الآداب، شرح د. زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٢، ج ٤، ص: ١٩٣ – ١٩٤.

- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، ج ١، مؤسسة المعارف، ص: ١٥٢.

٣- تعتبر رسائل ابن العميد بشكل عام، والخاصة منها بـأبي عبد الله الطبري من الرسائل الإخوانية والأدبية، والتي تكشف عن المشاعر الصادقة بين ابن العميد وصاحبه، والتي تظهر كذلك مدى تأنق ابن العميد في صوغ رسائله بألفاظ مختارة معبرة مناسبة، وبعبارات مزينة بالمحسنات اللفظية المنتشرة في كافة أرجاء الرسائل.

٤- وتعدُّ هذه الرسالة على غرار غيرها من الرسائل وعلى الرغم من قصرها إلا أنها تظهر أموراً كثيرة منها: الشوق الشديد من ابن العميد لصاحبه، وحُسن الصحبة بينهما لدرجة أن ابن العميد إذا لم ير صاحبه، فإن ذلك سيؤثر سلباً على نفسيته وحالته الصحية، حتى وصل أمره أن يدعو له الله متمنياً بأن يكون فداء له، ويكفيه سروراً أن يرى خطه.

٥- كما نلمس كثرة السجع في رسالته هذه، مع حرص على توازن العبارات بشكل موسيقي متناغم، كما أكثر من المترادفات في الكلمات والجمل، بالإضافة إلى الجناس، مثل: الجميلة / الجليلة.
عامة / تامة.

٦- ومما يجدر ذكره أن كثرة المترادفات في هذه الرسالة تسير في مجال الإطناب، لكنه إطناب مرغوب غير ممل، وذلك لحسن عناصر المحسنات التي أوردها، ولحسن التوازن بين العبارات.

الرسالة الرابعة:

ومن رسالة أخرى في أبي عبد الله الطبري حيث يقول:

"وصل كتابك فصادفني قريب عهد بانطلاق، من عنت الفراق، وأوقفني مستريح الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق، فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأبدال، واعتقني من مخالّتك عتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركاً ولا استثناء، ونزع من عنقي ربقة الذل في إخائك بِيَدَيْ جفائك، ورشّ علي ما كان يحتدم في ضميري من نيران الشوق ماء السلو، وشنّ علي ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فَلأم فُطورَها بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوض نفسي من النزاع إليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصري، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظري، حتى حدر النقاب على صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك؛ فلم أجد إلا منكراً، و لم ألق إلا مستكبراً، فوليت منها فراراً، ومُلئتُ رعباً فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذميماً عهدك[1].

وفي فصل من هذه الرسالة يقول:

"وأما عذرك الذي رمت بسطه فانقبض، وحاولت تمهيده وتقريره فاستوفز وأعرض، ورفعت بضبعه فانخفض، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قبوله على رده، وتزكيته على جرحه، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسه، و لم يقم عند ظنك به، أنّ وقد غطى التذمم وجهه، ولفّ الحياء رأسه، وغضّ الخجل

---

(١) القيرواني، إبراهيم على الحصري، زهر الآداب، ج ٣، ص: ٨٧٥ — ٨٧٦.

طرفه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولىًّ فلن تقدر على إيقافه، ومضى يعبرُ في فضول ما يغشاه من كرب حتى سقط، فقلنا: لليد والفم؛ ثم أمر بمطالعة مـــا صحبه فلم أجده إلا تأبّط شراً، أو تحمَّلَ وِزْراً.

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول:

اقْرَ السلام على الأمير وقـــل لـــهُ	قَدْكَ اتَّئِبْ أربَيْـــــتَ في الغلـــواءِ
أنت الذي شتت شمـــل مســـرتي	وقدحت نار الشوقِ في أحشـــائي
ورضيت بالثمن اليسير معوضـــةً	مـــني، فـــهلا بِعْتَـــني بِغــــلاءِ
وسألتك العتبى فلـــم تـــرني لهـــا	أهلاً، فجدت بعـــذرةٍ شـــوهاءِ
وردت مموهةً فلـــم يرفـــع لهـــا	طرف، ولم ترزق مـــن الإصغـــاءِ
وأعار منطقـــها التذمّـــم ســـكتة	فتراجعت تمشي علـــى اســـتحياءِ
لم تشف من كمدٍ، ولم تبرد علـــى	كبدٍ، ولم تمســـح جوانـــبَ داءِ
داوت جوىً بجوى وليس بحـــازم	من يســـتكف النـــار بالحلفـــاءِ
من يشف مِنْ كمد بـــآخر مثلـــه	أثرت جوارحُـــهُ علـــى الأدواءِ[1]

وفي الرسالة الرابعة هذه لابن العميد، والمرسلة إلى صديقه أبي عبد الله الطبري، والتي أوردها القيرواني في زهر الآداب على فصلين، **حيث خرجـــت من الفصل الأول بالنتائج التالية:**

١- أعلن ابن العميد في مستهل رسالته أنه قد وصله كتاب صديقـــه في وقت يعاني فيه مشقة الفراق.

٢- ثم يتطرق إلى الحديث عن الدهر ودورانه وتبدله.

---

(١) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب، ج ٣، ص: ٨٧٦ - ٨٧٧.

٣- كما بين النتائج النفسية التي أثرت على ابن العميد من جراء وصــول هذا الكتاب.

وفي الفصل الثاني من هذه الرسالة، يبيّن ابن العميد لصاحبـــه: أن العذر الذي عرضه أبو عبد الله الطبري لا يروق لابن العميد ويســـبب لــه النفور، ويحاول بعد ذلك تفسير هذا الموقف بقصيدة من شعره.

ويبدو السجع واضحاً في هذه الرسالة بجزأيها، مع بعـــض مواقـــف الطباق، والترادف والتصويرات الفنية الجميلة، على عادة ابن العميد في نـــثره وشعره.

والإطناب واضح في هذه الرسالة، وكان بالإمكان أن يعـــبر عـــن المقصود من خلال فقرة أو فقرتين على الأكثر، بما في ذلك الشعر.

الرسالة الخامسة:

وكتب ابن العميد لأبي عبد الله الطبري:

"أخاطب الشيخ سيدي – أطال الله بقاءه – مخاطبة مُحرجٍ يروم الترويح عن قلبه، ويريع[1] لتفريج من كربه؛ فأكاتبه مكاتبة مصدور، يريد أن ينفث بعض ما به، ويخفف الشكوى من أوصابه، ولو بقيت في التصبر بقيةٌ لسكتّ، ولو وجدت في أثناء وجدي مخرجة يتحللها تجلد لأمسكت؛ فقديما لبستُ الصديق على علاته، وصفحت له عن هناته، ولكني مغلوب على العزاء، مأخوذٌ عن عادتي في الإغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباء، وتوالى عليّ من قبحِ فعلك في هجر يستمر على نسق، وصدّ مطردٍ متنسق، ما لو فضّ على الورى، وأفيض على البشر لامتلأت منه صدورهم، فهل أقدرُ على ألاّ أقول، وهل نكلك إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الإضرار، وعقيدك على الإفساد[2]، وأشكوه إليك، فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لِبان، وفي استيطاء مركب العقوق شريكي عنان، فإنه قاصرٌ عنك في دقائق مخترعةٍ، أنت فيها نسيجُ وحدك، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنت فيها وحيد عصرك، أنتما متفقان في ظاهر يسرُّ الناظر، وباطن بسوء الخابر، وفي تبديل الأبدال، والتحول من حال إلى حال، وفي بثّ حبائل الزور، ونصب أشراك الغرور، وفي خلف الموعود، والرجوع في الموهوب وفي فظاعة هتضام ما يعير، وشناعة ارتجاع ما يمنح، وقصدِ مُشارّة الأحرار[3]، والتحامل عند ذوي الأخطار، وفي تكذيب الظنون، والميل عن النباهة للخمول، إلى كثير من شيمكما التي أسندتما إليها، وسنتكما التي تعاقدتما عليها، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقض عُرى العهود،

---

(١) يروم ويريع: كلاهما بمعنى يطلب.

(٢) معاهدك ومعاقدك: يريد أنهما متفقان

(٣) المشارة: المخاصمة.

ونكث قُوى العقود؟ وأين هو عن النميمة والغيبة، ومشي الضراء في الغيلة، والتنفق بالنفاق في الحيلة، وأين هو ممن ادّعى ضروب الباطل، والتحلي بما هو منه عاطل، وتنقص العلماء والأفاضل؛ هذا إلى كثير من مساوٍ منثورة أنت ناظمها، ومخاز متفرقة أنت جامعها، أنت أيّدك الله إن سوّيته بنفسك، ووزنته بوزنك، أظلم منه لذويه، وأعق منه لبنيه؛ وهبك على الجملة قد زعمت – مفترياً عليه – أنه أشد منك قدرة، وأعظم بسطة، وأتم نصرة، وأطلق يداً في الإساءة، وأمضى في كل نكاية شباة[1]، وأحدّ في كل عاملة شَداة[2]، وأعظم في كل مكروه متغلغلاً، وآلف إلى كل محذور متوصلاً إن الدهر الذي ليس بمعتب من يجزعُ، وإن العتبى منك مأمولة، ومن جهتك مرقوبة، وهيهات! فهل توهّم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً في صورة إنسان، ثم كاتبته إلى رعاية المِقة، واستعد على ما أشاعه الفراق في نفسي من اللوعة، وأضرمه بالبعاد في صدري من الحرقة، كان يستحسن ما استحسنته من الاضطراب عند جوابي، ويستجيز ما استجزته من الاستخفاف بكتابي.

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم:

وهبْك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة، فقد قرأناه، أتجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناه، فلم نر فيه هدايةً إلى شيء من العقوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها إلا من جهل مقدار نفسه، وقدّر الحق عليه وله؛ بل لك في رؤساء الآداب العربية [منّا ريحٌ ومضطرب، ولسنا نشّاحك، لكن أتحب أن تتحقق ملك الضلال قيادي حتى أشكل على ما يحتاج إليه المزوجان، ولا يستغني عنه المتآلفان، وهما ممازجة طبع، وموافقة شكل وخَلْق، ومطابقة خيم وخلُق، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف،

(١) شباة السنان: حده.

(٢) الشداة: بقية القوة، وحد كل شيء.

وحمتنا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدين، وبين أمرين متباعدين، وإذا حصّلت الأمر وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار أقل [ما بيننا من النضار، وأكثر ما] بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار"[1].

وقد خلصت إلى النتائج التالية:

١- يستمر ابن العميد في ترسله لأبي عبد الله الطبري، والتي يبث فيها أشواقه ومشاعره نحو صديقه، شأنه في ذلك شأن رسائله الأخرى.

٢- كما تسجل هذه الرسالة ضمن الرسائل الإخوانية، وهي في نفس الوقت تعتبر من الرسائل الأدبية التي اظهر فيها ابن العميد براعته في نسجها على هذا النسق المنمق.

٣- كما اشتملت هذه الرسالة على الكثير من المحسنات البديعية أجملتها ضمن الجدول المبين:

السجع	الطباق	الترادف
يروم الترويح عن قلبه، ويرفع التفريج عن كربه	ظاهر / باطن	يروم / يريغ
... بعض ما به، .. من أوصابه	يسر / عسر	تبديل الأبدال والتحول من حال إلى حال
... لسكت، ... لأمسكت	ائتلاف / اختلاف	فظاعة / شناعة
... على نسق، ... مطرد متسق	أقل / أكثر	العهود / العقود
... رضيعي لبان، ... شريكي عنان	الليل / النهار	منثورة / متفرقة
... نسيج وحدك، ... وحيد عصرك	الإعلان / الإسرار	الفراق / البعاد
... حبائل الزور، ... أشراك الغرور		اللوعة / الحرقة

---

(١) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج ٣، ص: ٨٧٥ – ٨٨٠.

... الباطل، ... عاطل، ... الأفاضل		
أشد منك قـــدرة، وأعظـــم بســـطة، وأتم نصره أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد ممـــا بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار، أقل ما بيننا من النضار، وأكثر ما بين الليـــل والنـــهار، والإعلان والإسرار		

٤- وقد أورد ابن العميد في جمله بعض الاستعارات مثل قوله :

* فقديماً لبست الصديق على علاّته.
* وذهب في نفسي من ظلمك ما انزف حلمي فجعله هباء.
* وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الإضرار.
* وان كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لبان.

رابعاً: ومن رسائله في التهنئة ما أرسله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين:

١- "أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة، دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيده، وبسطه وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده، وهناه ما احتظاه به على قرب البلاد، من توافر الأعداء، وتكثر الإمداد، وتثمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين والأسباط، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قُرة، ونفسه من مسرة، ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وفسح في أمده، حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما بعد حسن ظنه، وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره، واستنارا من دوره، وحفا بسريره، وجعل وفدهما متلائمين، وورودهما توأمين، بشيرين بتظاهر النعم، وتوافر القسم، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرق الفضا، ويشرق بنورهم أفق العلا، وينتهي بهم أمد النماء، إلى غاية تفوت غاية الإحصاء؛ ولا زالت السبل عامرة، والمناهل غامرة، بصفائح صادرهم بالبِشر، وآملهم بالنيل"(١).

ونلاحظ في هذه الرسالة أموراً لها أهميتها في مجال الأدب منها:

* فهذه الرسالة تعدّ من الرسائل الإخوانية لابن العميد، وإن ظهرت بمظهر الرسالة الأدبية، حيث بدأ رسالته بالدعاء للأمير بأنواع مختلفة من الأدعية، والتي تظهر مكانة عضد الدولة عند ابن العميد.
* كما بدا السجع واضحاً وإن كان أكثر سجعه منتهياً بالهاء أو التاء.
* وأكثر ابن العميد من الجمل المتوازنة، والتي ظهر فيها الكلمات المترادفة أحياناً.
* وتحمل هذه الرسالة الكلمات المختارة والتي تتناسب مع المعنى ومع الموقف.

---

(١) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب، ط ٢، ج ٤، ص: ١٩٤ - ١٩٥.

ولابن العميد فصول قصار تجري مجرى الأمثال[1]، منها:

١- من أسرّ داءه وستر ظمأه، بَعُدَ عليه أن يبل من غَلَلَه، ويبل من علله، متى خلصت للدهر حال من اعتوار أذى، وصفا فيه شربٌ من اعتراض قذى؟.

٢- خير القول ما أغناك جدُّه، وألهاك هزله.

٣- الرُّتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب، ولا تدرك إلا بتحشم كلفة وتصعب.

٤- المرء أشبه شيء بزمانه، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه.

٥- قد يبذل المرء ماله في إصلاح أعدائه، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه؟.

٦- هل السيد إلا من تهابه إذا حضر، وتغتابه إذا أدبر؟.

٧- اجتنب سلطان الهوى، وشيطان الميل، وغلبة الإرادة.

٨- المزح والهزل بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد العسر، وفحلان إذا ألقحا لم ينتجا غير الشر.

فهذه الجمل التي صاغها ابن العميد، وجرت مجرى الأمثال، يظهر فيها تأثرها بأسلوب ابن العميد في الترسل، حيث السجع المتوازن الذي يطغى عليها، بين كل جملتين أو أكثر من مكونات المثل.

---

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٧٠.

كذلك وجد الطباق في مواضع مختلفة كقوله:

جده – هزله.

أعدائه – أوليائه.

حصر – أدبر.

فتحا – يغلقا.

والناظر لهذه الجمل والتي سارت مسرى الأمثال، يرى أنها نتجت عن مراس ابن العميد في الحياة، وعن تجارب اعترضت حياته، فخلص منها إلى هذه الأمثال، والتي أودعها الجوانب الفنية التي تميز بها أسلوبه.

من شعر ابن العميد:

لقد استعرضت في الصفحات السابقة نماذج مختلفة من ترسل ابن العميد، وتم ملاحظة مدى التزام ابن العميد في تطبيق ما اتصف به فن الترسل من ميزات، جعلت منه صاحب مذهب في الترسل والكتابة الفنية، وكان لابن العميد نماذج من الشعر العربي ، فلذلك أحببت أن أتناول بعض هذه النماذج الشعرية، من أجل ملاحظة مدى اكتمال الجوانب الفنية في أسلوب ابن العميد شعراً ونثراً، وأسوق هنا أمثلة من شعره، فهذه أبيات لابن العميد:

١- من قصيدته[1] لابن خلاد، حيث أهدى ابن خلاد إلى ابن العميد شيئاً من الأطعمة وكتب إليه في وصفها، وابن العميد إذ ذاك في عقب مرض عرض له: (من البسيط):

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ج ٣، ص: ١٧٠ – ١٧١.

قل لأبن خلاد المفضي إلى أمـــدٍ في الفضلِ بـــرّز فيـه أيّ تـبريز

بعدي اهتزازك للعلياء كل فـــتى مؤخر عن مدى الغايات محجـــوز

ماذا أردت إلى منـــهوض نائبـــةٍ مدفّعٍ عن حمى اللـــذاتِ ملـــهوزِ

لم يتركْ فيه فحوى ما وصفت لــه من الأطايبِ عضواً غــير محفــوز

رمتَ الحلاوةَ فيها ثم جئتَ بهـــا تحذي اللسان بطعمِ جدٍّ ممـــزوز

لو ساعدتك بنو جـــوادٍ قاطبـــةً عليه ما كان فيهم غـــير ملمــوز

أوقعت للشعرِ في أوصافها شـــغلاً بين القصائدِ تـــروى والأراجـــيز

لا أحمد المرء أقصى ما يجود بـــه إذا عصرناه أصناف الشـــواريز *

٢- ومن إخوانياته ما كتبه إلى أبي الحسن العباسي[1]، وهي من مشـــهور شعره وجيده (وهي من البسيط):

أشكو إليك زماناً ظـــلّ يعرُكـــني عرْك الأديمِ ومن يعدي على الزمـن؟

وصباحاً كنت مغبوطـــاً بصحبتِـــهِ دهراً فغادرني فـــرداً بـــلا ســـكن

هبت له ريحُ إقبـــالٍ فطـــار بهـــا نحو السرورِ وألجـــاني إلى الحـــزن

نـــأى بجانبِـــهِ عـــني وصـــيّرني من الأسى ودواعي الشوقِ في قـــرن

وباع صفو ودادٍ كنـــت أقصـــرُهُ عليه مجتـــهداً في الســـر والعلـــن

وكان غالى بـــه حينـــاً فأرخصـــهُ يا من رأى صفوَ ودٍّ بيـــعَ بـــالغبن

كأنه كان مطويـــاً علـــى إحَـــنِ ولم يكن في ضروب الشعر أنشـــدني

"إن الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكـــروا من كان يألفهم في المنـــزلِ الخشن"

---

* الملهوز: المدفوع الممنوع، المحفوز: المطعون، الشواريز: جمع شيراز: وهو اللبن الرائب المستخرج ماؤه، الملموز: المعيب المطعون فيه.

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ص: ١٧٥ – ١٧٦.

٣- ومن شعره في الغزل[1]: (من الكامل):

ظلت تظللني من الشمسِ نفسٌ أعز عليَّ من نفسي
فأقول: وا عجباً ومن عجبٍ شمسٌ تظللني من الشمس

٤- من معارضاته: من قصيدته الهرّية[2] عارض فيها ابن العلاف (من المنسرح):

يا هرّ فارقتنا مفارقةً عمتْ جميعَ النفوس بالثكل
لو كان بالحادثاتِ لي قِبَلٌ إذاً أتاك الصريخُ من قبلي
يا مثلاً سائراً إذا ذكرَ الحسن تركت الحسان كالمثل
وقيل هل تفتديه إن قبل الدهرُ فداءً فقلت حَيَّهَلِ
أفديه بالصفوةِ الكرامِ من الإخوانِ دون الأخدانِ والخلل

٥- ومن شعره في المعمى[3]:

قال في السفرجل(من المتقارب):

يقولون خطبٌ من البين جَلاًّ ولم أر سير الخليطِ استقلا
وقد لقبوه نوى غربةٍ ولم أر أقربَ منه محلا
وبزَّت سرابيلَه عنوة فألْفيَ لما تعرى تحلى
وأفرد من بين أترابه فما غضَّ من حسنه أن تخلّى
وزلَّ فقلنا لعاً ناعشاً لعالٍ إذا ما تعلى تدلى
تزيد مكاسره لذةً إذا ما الغمام عليه استهلا
إذا نال منه السليمُ استقل وإن نال منه السقيمُ استبلا
إذا ما امرؤ مَلَّ روحَ الحياة فحاشا لذلك من أن يملا

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ص: ١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٨٣.

(٣) المرجع السابق، ص: ١٨٤.

٦- ومن مقارضاته[1] الشعرية ما تخبر عنه هذه القصة، فقد اجتمع عنده يوماً أبو محمد بن هندو، وأبو القاسم بن أبي الحسين بن سعد، وأبو الحسين بن فارس، وأبو عبد الله الطبري، وأبو الحسن البديهي، فحياه بعض الزائرين بأترجة حسنة، فقال لهم: تعالوا نتجاذب أهداب وصفها، فقالوا: إن رأى سيدنا أن يبتدئ فَعَلَ، فابتدأ وقال (من الطويل):

* وأترجة فيها طبائعُ أربع *

فقال أبو محمد:

* وفيها فنونٌ اللهو للشرب أجمع *

فقال أبو القاسم:

* يشبهها الرائي سبيكة عسجد *

فقال أبو الحسين بن فارس:

* على أنها من فأرةِ المسكِ أضوَعُ *

فقال أبو عبد الله الطبري:

* وما اصْفَرَّ منها اللونُ للعشق والهوى *

فقال أبو الحسن البديهي:

* ولكن أراها للمحبين تجمع *

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، ص: ١٧٩ – ١٨٠.

ومن خلال الأشعار السابقة، يظهر أن ابن العميد على الرغـــم مـــن إبداعه في كتاباته وترسله، إلا أنه في شعره لم يصل إلى هذا الحد من الرقـــي والبراعة، وإن كان له بعض الأشعار، إلا أنه لا يعد في مصـــاف الشـــعراء المبدعين والمكثرين كابن الرومي مثلاً، فموضوعات شعره القليـــل كـــانت حسب الغرض، أو كهواية نفسية.

وبهذا نلاحظ أنه لم تظهر براعة ابن العميد في حســـن اســـتخدامه لمفردات اللغة بشكل واضح في أشعاره، كما هو الحال في ترسله.

خلاصة القول في ترسُّل ابن العميد

لقد استطاع ابن العميد أن يصل إلى مرتبة عالية في فن الترسل، من خلال تطبيقه للأسلوب الفني الذي التزم به، - والذي سقت منه نماذج في هذا الفصل -، فعلى سبيل المثال نراه: يلتزم السجع القصير، والموازنة بين السجعات في جميع رسائله تقريباً، يستعمل الطباق والترادف ضمن هذه المحسنات البديعية التي استخدمها في ترسله، كما ظهر الإطناب عنده واضحاً في رسائله، إذ اتضح ذلك في رسالته لابن بلكا، وفي رسائله لأبي عبد الله الطبري، وفوق ذلك كله فقد أظهر ابن العميد براعة في حسن استخدام حروف الجر والروابط الأخرى، وذلك في معظم رسائله، إلى جانب التضمين والاقتباس، مع بعض الإشارات اللغوية والتاريخية والعلمية، بالإضافة إلى الاستعارة والتشبيه في مواقع مختلفة من ترسله، كما يظهر اهتمام ابن العميد بتناسق الجمل واتحاد حرف الروي، وذلك ربما لتأثره بموسيقا الشعر وأوزانه.

وقد لاحظت أن المصادر والأبحاث أظهرت تركيزاً واضحاً على ترسل ابن العميد في مجال الرسائل الإخوانية أكثر من الرسائل الديوانية، وإن كان من المفروض أن يكون العكس، لكون ابن العميد وزيراً لدولة، فمركزه يحتم عليه أن يكثر من ترسله في المجال الديواني.

وبعد هذه الوقفة مع ابن العميد، وقبله وقفنا على ترسل عبد الحميد، فقد آن الأوان لنقف على ترسل الإمامين والشيخين معاً، وهذا ما سيكون في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

التلازم بين الخط العربي وفن الكتابة والتزام عبد الحميد وابن العميد بهما، وما قيل عنهما .

فن الترسّل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد .

من نتائج هذه الدراسة .

الخلاصة .

التلازم بين الخط العربي وفن الكتابة، والتزام عبد الحميد وابن العميد بهما، وما قيل عنهما

قبل الدخول إلى الفصل الأخير في هذه الرسالة أحببت أن أتحدث عن الخط العربي، وفن الكتابة العربية، لأن للخط العربي دوره في تذوق الكتابة العربية، فالخط الجميل يعبر عن نفس جميلة وهادئة ورزينة، وقد كان من أهم الصفات للكاتب في ديوان الرسائل أن يكون حسن الخط، ذا جودة عالية، لأن ما يكتبه سينشر ويقرأ في سائر الولايات الإسلامية من أرض الخلافة، وهذا الأمر كان أهم ما يتصف به كل من عبد الحميد وابن العميد، لأنهما كانا يعيان أهمية الالتزام بالخط الجيد والواضح، كما كانا يدركان مدى التلازم بين إتقان الخط والكتابة الفنية، فلذلك نرى أن الأغلبية من الكُتّاب الفنيين والمترسلين، كانوا يتصفون بجودة الخط ووضوحه، وكأنه سلاح مهم في ترقي الكاتب في ديوان الرسائل، أو تعيينه ككاتب فيه، وقد عثرت على أقوال تظهر أهمية الخط العربي والكتابة الفنية رأيت تسجيلها في هذه الرسالة، ومن ذلك نجد "الإمام علي رضي الله عنه يقول (الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً)"[1]، كما قيل إن "الخط العربي جدول من نهر الفن الإسلامي يموج مثله، ويسيل حلاوة"[2]، "وفن الكتابة هو فن الفكر والذوق معاً، فن الفكر بما يضمنها من معان، وفن الذوق بما يخلع عليها الكاتب من حلاه ورؤاه"[3]،

(١) فؤاد، نعمات أحمد، فن الكتابة في الأدب العربي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٣٧، ص: ٩٠.

(٢) المرجع السابق. نفسه

(٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٩١.

وتقديراً للكاتب ودوره في الحياة يقول أحد الشعراء[1]:

وما من كـاتب إلا سـتبقى   كتابتُـهُ وإن فَنِيَـتْ يـداه

فلا تكتب بخطكَ غير شـيءٍ   يسرُّك في القيامـة أن تـراه

ومن البيتين السابقين نرى أهمية الالتزام الديني والخلقي والأدبي لـدى الكاتب، وكل عمل يقوم به الإنسان يحتاج إلى إعمال فكر، وإجهاد عقـل، فلذلك قيل: "كل صناعة تحتاج إلى ذكاء، إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءين: جمع المعاني بالقلب، والحروف بالقلم"[2].

ومن صفات الكتابة الجيدة: "قصر الجمل وسرعتها، ووضوح العبـلوة وبساطتها، وطبع الكلام وسهولته"[3].

وإننا نرى أن الخط والكتابة وجودة كل منهما متلازمان، وقد كـان من مؤهلات الكاتب أو رئيس ديوان الرسائل جودة الخـط، وذلـك لأن رسائله ستنشر في الولايات الإسلامية، فمن الضروري أن تكتب بخط جيـد حتى يسهل قراءتها في كل مكان تصل إليه.

و "الكتابة خطيه وفنية وديوانية، دلالة من دلالات تحضـر الأمـم، ومظهر من مظاهر قوتها...، وتاريخ تطورها هو تاريخ تطور الأمة، ابتـداء من العصر الجاهلي وصعودا في مراحل الحضارة التالية حتى العصر العباسـي حيث أخذت [هذه الكتابة] تستمد من الواقع الحضاري الجديد، ما تكفـل بإغنائها الانتقال بها نحو الكمال والجمال انتقالات مهمة، فقد اسـتكملت

---

(١) الأصبهاني، حسين بن محمد الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشـعراء والبلغـاء، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٩م، ج ١، ص: ١٠٠.

(٢) فؤاد، نعمات أحمد، فن الكتابة في الأدب العربي، مجلـة مجمـع اللغـة العـربي بدمشـق، ج ٣٧، ص: ٩٧.

(٣) جبري، شفيق، تطور النثر في العصر العباسي، مجلة مجمع اللغة العربي بدمشـق، مجلـد ٤٥، ج ٤، ص: ٧٢٣.

الكتابة الخطية شكلها وقواعدها، وأغنت الكتابة الفنية بمضامين وأساليب فنية جديدة كونت الكتابة الديوانية رسومها"(١).

ويورد أحد الباحثين قولاً عن طبقة الكُتّاب، الذين لم ير قط قوماً أمثل طريقة في البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً أو وحشياً ولا ساقطاً سوقياً(٢). وهنا نثبت للجاحظ قولاً: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فرأيته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب"(٣).

أما ما يحتاجه الكاتب: إنما يشمل الثقافة العامة والثقافة الخاصة، أما الثقافة العامة فهي ثقافة واسعة في ميدان الأدب واللغة العربية والتاريخ وتقويم البلدان، والقرآن الكريم وعلوم الحديث الشريف والفقه والحروب وسير الملوك والعظماء، وعلى الجملة جميع العلوم المعروفة في عصره، أما الثقافة الخاصة فيعني بها معرفة الخط وأنواعه، وأدوات الكتابة وأنواع الورق، وطرق الإنشاء وأساليب كتابة الرسائل(٤).

ومما قيل في فضل الإيجاز: إذا كان أشرف الكلام كله حسناً، وأرفعه قدراً، وأعظمه من القلوب موقعاً، وأقله على اللسان عملاً، ما دل بعضه على كله، وكفى قليله عن كثيره، وشهد ظاهره على باطنه، وذلك أن تقل حروفه وتكثر معانيه(٥).

ومما قيل عن عبد الحميد الكاتب وابن العميد وترسلهما، قد لاحظنا مدى التزامهما في كثير مما قيل في هذه الأقوال.

---

(١) العلاق، حسين صبيح، الشعراء والكتاب في العراق، مؤسسة الأعلمي، ص: ٢١.

(٢) خفاجي، محمد عبد المنعم، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٧٣م، ص: ٢٢٥.

(٣) مهنا، علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط ١، ص: ٢٢٧.

(٤) المصدر السابق، ص: ٢٢٥.

(٥) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج ٣، ط ٢، ص: ٢١٠.

فن الترسل عند عبد الحميد

الكاتب وابن العميد

لقد تحدثت عبر الفصول السابقة، عن الترسّل الذي سبق عصر عبد الحميد الكاتب، وتبين لي أن جذور الترسل كانت موجودة قبل عبد الحميد الكاتب، ولكن عبد الحميد استطاع أن يرفع من شأنها، ويصل بها إلى درجة مرموقة لم يسبق إليها من قبل، وبعد نحو قرنين من الزمان يأتي رجل يشبه عبد الحميد في مقدرته الفنية في الترسل، ألا وهو ابن العميد الذي بلغ الترسل على يديه قمة ربما تضاهي قمة عبد الحميد الكاتب، وهذا ما حاولت أن أظهره في الفصول السابقة خاصة الفصلين الثاني والثالث، وسأحاول في هذا الفصل إن شاء الله تعالى، أن أبيّن أهم النقاط التي التقى فيها عبد الحميد الكاتب بصاحبه ابن العميد، وأهم الأمور التي انفرد بها كل منهما عن صاحبه وذلك ضمن استعراض الأمور الآتية:

إن المتمعن في نسب عبد الحميد الكاتب وسيرته يجد أنه يمتد في نسبه إلى جذور فارسية، وهو هنا يلتقي مع ابن العميد الفارسي الأصل، حيث لعب هذا الأصل عند كل منهما دوره في ترسلهما كما رأينا، كاستعمال عبد الحميد للحال والترتيب والتنسيق المنطقي لما يكتب، بينما نجد ابن العميد يستخدم السجع والتوازن والمحسنات البديعية المختلفة، والتفخيم والتعظيم.

ولقد عاش عبد الحميد الكاتب في أواخر العهد الأموي، وظل ترسله وفنه الكتابي له الأثر الواضح حتى فترة ليست قصيرة من العهد العباسي، وكذلك ظهر ابن العميد في عصر متأخر من العهد العباسي، وهذا يظهر لنا أن كلا منهما عاش وعايش قرب أفول نجم عهد طالما كان ساطعاً لفترة طويلة من الزمن.

وعبد الحميد الكاتب شغل منصب رئيس ديوان الرسائل في عـــــهد الخليفة مروان بن محمد، وهو يساوي مرتبة وزير في ذلك العصر، كما عمـل ابن العميد وزيراً لركن الدولة البويهي.

وكان لهذا المنصب أثره على ترسلهما وعلى حياتهما العامـــة، أي أن كلا منهما كان ابن دولة ويمثل دولة وينطق باسم دولة.

وبالنسبة إلى مصادر الثقافة لهما نجد أيضاً تشـــابهاً، فعبـــد الحميـــد الكاتب، تأثر بالثقافات الفارسية والهندية بشكل مباشر وغـــير مباشــر، ثم تنوعت ثقافته العربية وفي العلوم المختلفة، كذلك ابن العميد تأثرت ثقافتـــه بالفارسية بشكل مباشر، ثم توسع بالثقافة العربية من علوم اللغــــة العربيـــة والإسلامية والعلوم الأخرى.

ونجد عبد الحميد الكاتب يتتلمذ عل يد صهره سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك، بينما يتتلمذ ابن العميد على يد والده العميد، بالإضافـة إلى اعتماد كل منهما على جهده الشخصي، في التوسع الثقافي وما يـــأخذه من حلقات العلم في المساجد.

وإذا ما جئنا إلى الصفات الشخصية، نجد أن لكل واحــــد منـــهما صفات ومزايا، جعلت منه شخصية متميزة في الجانب الرسمي الوظيفـــي، وفي الجانب الترسلي، وفي الجانب الخلقي، فقد اتصف عبد الحميد الكاتب بالوفاء ونبل العاطفة، والتواضع والحلم واللين، وكان أديباً وراويةً وخطيباً وشــجاعاً ومترسلاً[1].

---

(١) عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص: ٥١ – ٥٥.

– العزيزي، المنهل في تاريخ الأدب العربي، ط ١، ص: ١٥٤.

أما ابن العميد فهو أديب وكاتب وشاعر ولغوي وحكيم وفلكي وسياسي ووزير، ومترسل، وقد كان قليل الكلام نزر الحديث، طاهر الأخلاق، نزيه النفس، لين العشرة، شجاعاً، نفسه لا تكره ولا تبغض[1].

وقد حاز كل منهما على ألقاب تدل على المكانة التي وصل إليها كل منهما، فقد لقب عبد الحميد بالكاتب واقترنت هذه الصفة باسمه، حتى أصبح يقال عبد الحميد الكاتب، ولقب بالأكبر تقديراً وتعظيماً لشأنه في الكتابة والترسل[2]، أما ابن العميد فقد لقب بألقاب تدل على رفعة المكانة التي بلغها، فقد لقب بالجاحظ الأخير وبالأستاذ، وبالرئيس، وبلسان المشرق وغير ذلك، وهذا الأمر يظهر أن عبد الحميد وابن العميد، كانا على درجة عالية من التمكن في فن الترسل والكتابة الإنشائية، وكان لكل منهما مدرسة خاصة، هو إمامها وشيخها وزعيمها.

وبالنسبة للجوانب التي تطرق إليها كل من عبد الحميد وابن العميد في ترسلهما، فإنها تكاد تكون متشابهة، فكل واحد منهما كتب في الرسائل الديوانية، والرسائل الإخوانية، فمن الرسائل الديوانية لعبد الحميد، رسالته لولي عهد الخليفة مروان بن محمد، ومن رسائله الإخوانية رسالته إلى الكُتّاب، ورسائله في التهنئة، وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية، أما ابن العميد فأشهر رسالة ديوانية له رسالته إلى ابن بلكا، ومن رسائله الإخوانية رسائله إلى صديقه أبي عبد الله الطبري، وله رسائل اجتماعية أخرى.

---

(١) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ص: ١٥٨.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ص: ٦٥٦.
- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ٢، ص: ٥٥٣.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، ج ٩، ص: ٢٥٧.

(٢) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٣ / ينظر ما قيل عن عبد الحميد في الفصل الثاني، وما قيل عن ابن العميد في الفصل الثالث.

أما الجانب الشعري فكلاهما مقل في الشعر، وإن وجد شعر لابن العميد اكثر من عبد الحميد الكاتب، وأرى أن الموضوعات التي تطرقا إليها في شعرهما قليلة ومحدودة.

والناظر في كتب الأدب العربي وتاريخه، يجد عبارة كثر ورودها والاستشهاد بها، وهذه العبارة أوردها الثعالبي في يتيمة الدهر، ألا وهي: "بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"[1]، ولي حول هذه العبارة الحديث الآتي:

تعتبر هذه العبارة أشهر عبارة تجمع بين الكاتبين: عبد الحميد وابن العميد، رغم وجود أكثر من قرنين من الزمان بينهما، حيث تظهر هذه العبارة أن الكتابة قد وصلت إلى مرتبة عالية على يدي هذين الكاتبين، كما تبين الدور الكبير الذي وجد لهذين الكاتبين في سبيل الترسل العربي، وأن لكل منهما ميزات فنية جعلت القائل يقول هذه العبارة ويقرن اسم عبد الحميد بابن العميد، لكن الدكتور احمد الحوفي يقول[2] بعد أن يورد هذه العبارة: وإذا كانت المبالغة واضحة في الشطر الثاني من الدعوى فإنها قد تخفى في شطرها الأول، لأن الأدب قد عرف كثيراً من الكتاب بعد ابن العميد أصدق منه عاطفة، وأرقى فكراً وأجود أسلوباً كالباقلاني (ت ٤٠٢ هـ) وأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ)، ولكنهم لم ينالوا من الشهرة مثل ما نال، لأنه كان وزيرا و لم يكونوا وزراء، وكانت له حاشية تدعو له وتذيع اسمه وتبالغ في وصفه و لم يكونوا هم كذلك. أما عبد الحميد فإنه كاتب اشتهر بصناعة الكتابة، فمن السهل أن يصدق الناس أنه بادئ الكتابة الفنية.

---

(١) الثعالبي، عبد الملك، يتيمة الدهر، شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ط ١، ١٩٨٣م، ص: ١٨٣.

(٢) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٣، ص: ٥٦١ – ٥٦٢.

والرد على هذه العبارة، وأنا في معرض الحديث عن الترسل عند عبد الحميد وابن العميد ومكانة كل منهما في عصره، يوجب علي سرد أقوال قيلت بشأن كل منهما، وتظهر مدى مصداقية هذه العبارة، وذلك من خلال أجيال أدبية متعاقبة:

أولاً: ما قيل بصدد عبد الحميد الكاتب من قبل أناس لهم مكانتهم في الأدب العربي:

١. و "عبد الحميد الكاتب الذي يضرب به المثل في صناعة الكتابة فيقال (العبارة)"(١).

٢. و "عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربت ببلاغته الأمثال (العبارة)"(٢).

٣. و "عبد الحميد بدون ريب أبلغ كُتاب هذا العصر وأبرعهم، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل (العبارة)"(٣).

٤. ولقد "شرع للكتابة رسوماً والتزم فيها أموراً لم تكن معهودة من قبله، فاستحسنها الناس ولزم الكتاب طريقته حتى قيل (العبارة)"(٤).

٥. "ولقد بايع النقاد ومؤرخو الأدب عبد الحميد أميراً على عرش الكتابة العربية، حين أطلق الثعالبي جملته المشهورة والتي سارت مع الزمان (العبارة)"(٥).

٦. "وجاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الإنشاء من طور إلى طور، لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد وقالوا (العبارة)(٦).

---

(١) خفاجي، محمد عبد المنعم (وزميله)، التفسير الإعلامي للأدب العربي، ط ١، ص: ٢٩٨.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ج ٣، ط ٢، ص: ١٤٠.

(٣) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي، ط ٤، ص: ٤٧٤.

(٤) مردم بك، خليل، عبد الحميد الكاتب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١٤، ص: ٣٩٥.

(٥) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، ص: ٢٢٥.

(٦) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ج ١، ص: ٤٩.

ثانياً: وابن العميد الذي شاع ذكره عند الكثيرين من الأدباء والدارسين أيضاً فقد قيل فيه:

١- لقد "نبغ ابن العميد في الأدب والكتابة حتى قيل (العبارة)"[١].

٢- و "كان ابن العميد هذا رأس كتاب المشرق، وفارس حلبتهم، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور، لم تنحط كتابته في البلاغة، كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين، حتى لقد كان يقال (العبارة)"[٢].

٣- وقيل: "وكان متوسعا (أي ابن العميد) في الفلسفة والنجوم، فضلاً عن الأدب والترسل حتى سموه "الأستاذ"، وكان يلقب لبراعته في الترسل بالجاحظ الثاني وقيل (العبارة)"[٣].

٤- وأنه "كان أوحد عصره في الكتابة، ويضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في البراعة في حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى سمو المعاني ونفاستها وكان يقال (العبارة)"[٤].

٥- وابن العميد "يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس، يضرب به المثل في البلاغة (العبارة)"[٥].

---

(١) الإسكندري، أحمد، الوسيط في تاريخ الأدب العربي، ص: ٣١٠.

(٢) حسين، طه (وآخرون) المجمل في تاريخ الأدب العربي، مكتبة الآداب، ص: ١١٧.

- عبود، مارون، أدب العرب، دار الثقافة، ص: ٣٠١.

(٣) زيدان، جرجي، المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، ص: ١٦٦.

(٤) عطا الله، رشيد يوسف، تاريخ الآداب العربية، ط ١، م ١، ص: ٣٧٢.

(٥) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ط ١، ص: ٦٥٦.

ثالثاً: ومنهم من يجمع بين الاثنين في الحديث عن المكانة وفن الترسل، فمما قيل بحقهما:

١- "إن ابن العميد أديب كبير من أدباء العربية، وكاتب بليغ من كتاب الرسائل قرن بعبد الحميد، رائد الأسلوب المتوازن فقيل (العبارة)"[١].

٢- "فعبد الحميد كان إماماً لأهل عصره، وأدخل في الكتابة أساليب في التعبير لم يكن يعرفها الأولون، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع، ومع ذلك إننا ننكر أن تكون الكتابة بدأت بعبد الحميد وختمت بابن العميد، فعبد الحميد ليس أول من كتب في العربية كتابة فنية رفيعة، وابن العميد ليس آخر من كتب كتابة ديوانية إنشائية بليغة"[٢].

٣- وتعلق الباحثة الألمانية على هذه العبارة فتقول: إن اسم ابن العميد إنما جرته لازمة السجع، وأن المقصود بالمدح هو عبد الحميد الكاتب وحده[٣].

ومن استعراضي للأقوال السابقة، تبين لي أن أكثر الأدباء والنقاد عبر سنوات طويلة، قد جعلوا عبد الحميد الكاتب وابن العميد شريكين في المكانة الرفيعة، التي وصلا إليها في الترسل والكتابة الفنية، وأن كل واحد منهما كان أستاذ عصره، وإمام مذهبه، وشيخ مدرسته.

---

(١) اليازجي، كمال، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، دار الجيل، ط ١، ص: ١٠٥.

(٢) حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، ص: ١٦٢.

(٣) عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي العهد عبد الله بن مروان الثاني للمستشرقة الألمانية، (هافيلورة شوينغ) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، ج ٤، ص: ٧٧٥.

وسأحاول الآن أن أستعرض بعض الجوانب الفنية لترسلهما والميزات الأسلوبية لكتابتهما الفنية، وأن أبين درجة الاهتمام بها عند كل من عبد الحميد وابن العميد ومدى تطبيقها أو الالتزام بها.

وهذه الجوانب سأحاول إظهارها من خلال رسالة عبد الحميد الكاتب لولي عهد مروان بن محمد، ورسالة ابن العميد لابن بلكا، حيث وردت الرسالة الأولى في الفصل الثاني والرسالة الثانية، والخاصة بابن العميد في الفصل الثالث من هذه الدراسة، وذلك وفق الجدول الآتي:

	الخصائص الفنية	عبد الحميد الكاتب ورسالته لولي عهد الخليفة مروان بن محمد	ابن العميد ورسالته لابن بلكا
١	نوع الرسالة	الرسالة ديوانية	الرسالة ديوانية
٢	موضوع الرسالة	هي رسالة حربية تبين لولي العهد، ما على القائد وماله، وأخلاق الجند، وكيفية التصرف في الأمور المختلفة.	هي رسالة حربية أرسلها ابن العميد لابن بلكا لإنهاء تمرده.
٣	الإطناب والإطالة	هذه الرسالة مطولة تزيد عن خمسين صفحة، وقد ظهر فيها الإطناب والإطالة في حجمها الكامل، وفي أثناء تبسطه وعرضه للأفكار الجزئية، حيث يوجد بعض الفقرات من الممكن أن تختصر إلى النصف.	الإطناب في هذه الرسالة أقل من رسالة عبد الحميد، خاصة في الحجم العام، أما في الفقرات فقد وجد إطناب وان كان في المجمل أقل مما وجد عند عبد الحميد.

٤	السجع	وجد في هذه سجع ولكنه أقل مما وجد عند ابن العميد.	وجد السجع بكثرة حتى لا يكاد يخلو سطر منه، وقد تميز ابن العميد بالتزامه بالسجع حتى أصبح إمام مدرسة فيه.
٥	الجناس	استخدمه بقلة وكجناس ناقص	استخدمه بكثرة وكجناس ناقص أيضاً.
٦	الطباق	استخدم بقلة.	استخدم بكثرة.
٧	الترادف	استخدم بكثرة.	استخدم بكثرة.
٨	التوازن	التزم به.	التزم به ولكن بشكل أقل من عبد الحميد.
٩	الازدواج	التزم به.	التزم به ولكن أقل من عبد الحميد.
١٠	الخيال والصور	وجد على قلة.	وجد على قلة.
١١	الاستشهاد والاقتباس	وجد على قلة.	وجد على قلة.
١٢	المطلع والختام	اهتم بهما ابن العميد.	الاهتمام بشكل عادي.
١٣	التفخيم والتعظيم	وجد في الرسالة.	وجد على قلة.
١٤	الأسلوب القرآني والملامح الإسلامية	وجد أكثر.	وجد ولكن أقل من عبد الحميد.
١٥	الصيغ النحوية	الحال – اسم الفاعل – صيغ التفضيل المتلوة بالتمييز – المفعول به في صدر الجملة – الجار والمجرور.	الجار والمجرور–كاف الخطاب–حروب الربط (الروابط)–التاء المتحركة المفتوحة – الصيغ الأمرية.
١٦	الترتيب المنطقي	يعتبر من ميزة أسلوبه.	لم يلتزم به كعبد الحميد.
١٧	اختيار الألفاظ ومناسبتها للمعنى	اهتم بها.	اهتم بها.

من نتائج هذه الدراسة

بعد أن استعرضت في هذه الدراسة، وعبر الفصول السابقة، حياة كل من عبد الحميد الكاتب وابن العميد، وثقافتهما وترسلهما، وتحدثت عن مجالات ترسل كل منهما وميزاته، فأنني أخلص إلى النتائج التالية، والتي أرى فيها أهمية كبيرة:

أولاً: عبد الحميد الكاتب وابن العميد الكاتب، أديبان وكاتبان مترسلان في ميدان اللغة العربية وأدبها، وإن كان كل واحد منهما تمتد جذوره إلى الفارسية على الأغلب، وقد جعل كثير من الدارسين والباحثين أن سبب تفوقهم في الترسل، أو تميزهم في جانب من جوانبه الفنية، يعود إلى تأثر كل واحد منهما بالثقافة الفارسية الموروثة أو المكتسبة، أو بالثقافة اليونانية كما أشار البعض عند الحديث عن عبد الحميد الكاتب في الفصل الثاني من هذه الرسالة.

ولكنني أرى بعد الدراسة المستفيضة لكل من الشخصيتين وترسلهما، أرى أن الأمر ليس على إطلاقه في هذا التأثر بالثقافة غير العربية أو التقليد للأدب الفارسي أو اليوناني، فمن ينظر في أسلوبهما في الترسل، ولغتهما والمعجم اللغوي الذي نهلا منه، وكيف استطاعا تسخير هذا المعجم في أسلوب ترسلي جميل، موشى بالمحسنات البديعية المختلفة، مع حسن اختيار اللفظ المناسب للمعنى، ومع جودة في توظيف اللفظ في المكان الملائم من الجملة، مع تفنن في الصيغ النحوية والتي تخدم العبارة الأدبية والفكرة المقصودة، ومع تنوع في الأساليب الإنشائية أو الخبرية ... كل ذلك في ثوب من الكتابة العربية البليغة، فاللغة العربية لغة عظيمة واسعة في ألفاظها ومدلولاتها، لا يستطيع أن يكتب فيها بشكل فني إلا من خبرها وتفنن فيها،

والفرق شاسع بين اللغة العربية وأي لغة أخرى في العالم، فالألفاظ غير الألفاظ، والمدلولات تختلف ... وإن حدث تأثر لعبد الحميد أو ابن العميد بلغة أجنبية، فهو ربما لا يعدو التأثر بالأفكار وترتيبها لا باللغة ونسجها، والذي تحدث عنهما بأنهما كانا مقلدين للفرس أو اليونان: فإن كان من الأدباء القدماء فربما كان من الخوارج أو الفرس أعداء العربية والإسلام، وإن كان من الأدباء أو الباحثين المعاصرين فربما يكون لغرض في نفسه كالتقليل من شأن الأدباء والكتاب العرب، وبالتالي من دور اللغة العربية ومكانتها في عصورها المختلفة، وهو في النهاية تقليل من أهمية اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والرسالة السماوية الخاتمة .. ألم يكن سيبويه من أصل غير عربي؟ وهو الذي وضع كتابه (الكتاب) في النحو أعظم كتاب في النحو حتى الآن، وهو أصل النحو، فلم لا يقال بأن سيبويه قلد غير العرب في قواعد النحو؟ وغيره الكثير من علماء العربية والحديث والتفسير والعلوم اللغوية والإسلامية الأخرى.

وحتى ما قيل إن عبد الحميد الكاتب قلد الفرس في الترتيب المنطقي لرسائله، فلا أرى في ذلك تقليداً لهم، فكل إنسان مفكر وأديب ومثقف كعبد الحميد، يستطيع أن يرتب أفكاره وفقرات رسائله، خاصة وهو في منصب رئيس ديوان الرسائل، وقيل عن عبد الحميد وابن العميد إنهما قد تأثرا فيما وجد في رسائلهما من التفخيم والتعظيم بالفرس الذين يحبون ذلك، وهذا الأمر أقول فيه: إن عصري الكاتبين تميز بالانفتاح على الحضارات المجاورة، الذي صاحب الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وطبيعي أن يحدث تأثر بما وجد في هذه الثقافات والحضارات، وكلنا يذكر أن أبا عبيدة بن الجراح – رضي الله عنه – لام سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما جاء إلى القدس ليفتحها، لأنه لم يلبس لباساً جيداً، أو يظهر بالمظهر اللائق أمام سكان القدس من الروم، وكيف أن سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله

عنه – عنّفه على هذا القول وقال له: نحن أمة أعزنا الله بالإسلام، ومن يبتغ العزة بغير الإسلام أذلّه الله.

وقيل إن عبد الحميد نقل الوصف بالحال عن الأعاجم من يونان وفرس، ومن بينهم كتابات أرسطاطاليس، وسأعرض الآن نصاً لإحدى كتابات أرسطاطاليس حتى نتبين هل كان ملتزماً بالحال أم لا:

فهذه رسالة كتبها أرسطاطاليس رداً على الاسكندر الذي بعث إليه برسالة يستشيره فيها فيمن بقي من عظماء الفرس:

فكتب إليه أرسطاطاليس:

"إلى الاسكندر المؤيد المهدى له الظفر من أصغر خَوَلِه أرسطاطاليس. أما بعد، فقد تقرر عندي من مقدمات فضل الملك ويمن نقيبه، وبروز شأوه، وما أدت إليّ حاسة بُصري من صورة شخصه، ووقع في فكري على تعقب رأيه، أيام كنت أؤدي إليه من تعليمي إياه ما أصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة إلى تعلمه منه، وقد ورد كتاب الملك بما رسم لي فيه، وأنا فيما أشير به على الملك حدّ الطاقة معه كالعدم مع الوجود؛ ولكن غير ممتنع من إجابته، فأقول:

إن لكل تربة لا محالة قسما من كل فضيلة، وإن لفارس قسمتها من النجدة والقوة، وإنك إن تقتل أشرافهم يخلف الوضعاء منهم، وترث سِفْلَتهم منازل عِليتهم، وتغلب أدنياؤهم على مراتب ذوي أخطارهم؛ و لم تبتل قط ببلاء هو أعظم عليهم من غلبة السِّفلة، وذلّ الوجوه؛ واحذر الحذر كله أن تمكن تلك الطبقة من العِلْية؛ فإن نجم منهم ناجم على جندك وأهل بلادك دهَمهم ما لا روّية فيه، ولا منفعة معه، فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرار فوزّع بينهم مملكتهم، وألزِم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية، واعقِد التاج على رأسه وإن صغُر ملكه؛ فإن المتسمي بالملك لازم لاسمه، والمنعقد له بالتاج لا يخضع لغيره، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالباً على الملك،

وتفاخراً بالمال؛ حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك، ويعود بذلك لك حرباً بينهم، ثم لا يزدادوا في ذلك بصيرة إلا أحدثوها لك استقامةً لك؛ فإن دنوت منهم كانوا لك، وإن نأيت عنهم تعززوا بك؛ حتى يثب كل منهم على جاره باسمك، وفي ذلك شاغل لهم عنك، وأمانٌ لإحداثهم بعدك؛ ولا أمان للدهر؛ وقد أديتُ للملك ما رأيته لي حظاً، وعليّ حقاً، والملك أبعد رويةً، وأعلى عيناً فيما استعان بي عليه، والسلام الأبدي فليكن على الملك"[1].

وبالنظر إلى هذه الرسالة لم نجد فيها أي التزام لأرسطاطاليس بالحال، ومن زاوية أخرى، وإن وجد الحال في رسائل أخرى، فربما يكون للترجمة إلى العربية دور في إظهار صيغ الحال، والتي ربما لم يكن لها وجود في لغتهم الفارسية أو غيرها.

ومن هذا نقول إن الحال والصيغ النحوية الأخرى في لغتنا العربية هي من صميم لغتنا ومن ميزاتها وتمام رونقها.

ثانياً: وقيل عن عبد الحميد الكاتب بأنه رائد مدرسة الترسل الصناعي[2] والتي تتصف بالإطناب والازدواج[3] وإطالة التحميدات.

وقيل عن ابن العميد بأنه رائد مدرسة السجع والبديع[4].

---

(١) المصري، جمال الدين بن نباته، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ص: ٦٧ – ٦٨.

(٢) حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، المطبعة الفنية الحديثة، ط ١، ص: ١٤٣.

(٣) الازدواج: هو السجع العاطل، وهو اتحاد الفواصل في الوزن دون الروي كقوله تعالى: (ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة).
– المرجع السابق، ص: ١٤٣ / ١٦٢.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص: ١٦٠.

ولكنني أرى أنه بعد التبحر في رسائل كل من هذين الرائدين للمدرستين المذكورتين، أنني قد وجدت أن عبد الحميد الكاتب لم يخل ترسله من السجع والبديع، وان تميزت رسائله بصفة الإطناب والازدواج كصفة عامة وظاهرة اكثر من ترسل غيره. كما وجدت أن ابن العميد لم تخل رسائله من الإطناب والازدواج، وان كانت صفتا السجع والبديع في رسائله أظهر من رسائل غيره.

ثالثاً: فلقد شهد كتاب التاريخ الأدبي والأدباء والدارسون والباحثون والنقاد عبر عصور الأدب العربي، بالدرجة العالية من الريادة في ميدان الترسل، لكل من عبد الحميد الكاتب وابن العميد، وهذا ما حاولت إثباته وتدوينه في فصول هذه الرسالة المختلفة.

رابعاً: وإن عبارة الثعالبي (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد)، أرى أنها لا تعني أنه لا يوجد كتاب فنيون قبل عبد الحميد، فلقد وجد قبله ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبته و لم يستطيعوا أن ينهجوا نهجه، وأن يكون لهم طريقة معينة في الترسل لها ميزاتها، كما أنها لا تعني أن الكتابة توقفت بعد ابن العميد، إذ أنها استمرت بعده وعلى نهجه، لكن الالتزام بنهجه أخذ يخفت شيئاً فشيئاً، حتى ظهر التكلف المبالغ فيه في السجع والمحسنات، مما جعل الأدباء يمقتون ذلك ولا يعتبرونه مظهرا أدبياً فنياً خالداً.

خامساً: ثم إن التزام كل من عبد الحميد الكاتب وابن العميد، بالجوانب الفنية للشكل والمضمون للرسالة بشكلها العام، كان متفاوتاً عندهما، حسب نوع الرسالة والموضوع الذي تعالجه، فقد تراوحت رسائلهما بين الإطناب والإيجاز، وبين السجع والازدواج، وبين الطباق والترادف، وبين التحميد

وعدمه والتفخيم والتعظيم أو البعد عن التقيد فيه، إضافة إلى عدم الالـــتزام بشكل واحد أو حتى متقارب للمطلع والختام للرسائل.

سادساً: ولقد أظهر الكاتبان التـــزاماً إسلامياً وخلقياً وأدبياً في ترســـلهما، فلا فحش ولا بذاءة في الألفاظ، ولا تـــردي في المعـــاني، ولا انحطـــاط في الأفكار، بل كلها تصدر عن السمو والرفعة وعلو المرتبة، وهذا ما وضـــح في ترسلهما بشكل واضح.

سابعاً: ولقد حاول كـــل مـــن الكـــاتبين أن يتصفـــا بصفـــة الأمانـــة، والصيانة للمركز الوظيفي الذي يشغله كل منهما، فلقد أدّيا مـــا عليـــهما من التـــزامات خلقية ووظيفية على خير ما يرام، دون خيانـــة أو تفريـــط أو سوء استغلال، أو تقصير.

ثامناً: وإن الصفات الفنية للترسل عند عبد الحميد وابن العميد، اســـتمرت في الكتابة العربية حتى عصرنا الذي نعيشه على تفاوت في نســـبة التطبيـــق لهذه الصفة أو تلك، وعلى اختلاف بين أديب وآخر، وحســـب الموضـــوع الذي يكتب فيه.

تاسعاً: وأرى أن المفهوم العام للرسائل التي وجـــدت في عصـــري هذيـــن الكاتبين، قد تغيرت الآن لتحل المقالة المعاصرة مكان الرســـالة، وأرى هنـــا كذلك أنه لو تشابهت المقالة بالرسالة في بعض الجوانب، كالموضوع والجهـــة الكاتبة والمخاطَبة، إلا أنها تختلف في أمور أخرى، ككيفية توجيه الخطـــاب والحجم والألفاظ والمحسنات البديعية، فما كان يعد مهماً في عصريهما قد لا يكون مهماً في عصرنا الحاضر.

عاشراً: وبالنظر إلى رسائل كل من عبد الحميد وابـــن العميـــد، أرى أن عبد الحميد الكاتب أطول نفساً في كتابته للرسائل، وأغزر فكـــراً، وأكـــثر التـــزاماً في المعاني الإسلامية، من ابن العميـــد، وإن كـــان ابـــن العميـــد أكثر مقدرة على استخدام المحسنات البديعية، ولكنهما يتساويان في اختيـــار اللفظ المناسب للمعنى، وفي موضوعات الترسل التي كتبا فيها ... وطبعـــاً هذا لا يمنع أن نقول: إن كلاً منهما كان على خلق ودين وعلم وسعة أفـــق وثقافة عالية.

حادي عشر: وإن المعجم اللغوي لكـــل مـــن الكـــاتبين عبـــد الحميـــد الكاتب وابن العميد، معجم متقارب إلى حـــد كبـــير، فالألفـــاظ ســـهلة في أغلبها لا سوقية مبتذلـــة ولا موغلـــة في الغرابـــة والصعوبـــة، أحســـنا اختيارها لتتناسب مع المعاني التي تنتظـــم الأفكـــار المطروحـــة في فقـــرات الرسالة المختلفة، وهذا لا يمنع من ورود بعض الألفاظ الصعبة والغريبـــة[1]، ولكنها قليلة.

أما الجملة فقد كانت اسمية أو فعلية مباشرة أو غير مباشرة عند كـــل من الكاتبين، وذلك ليس على نمط واحد بل على شكل متنوع بين الفقرات، والصيغ النحوية تكاد تكون متقاربة، وإن كانت عند عبد الحميد أميـــل إلى استخدام الحال أكثر منه عند ابن العميد، أما الصيغ الأمرية الخطابية عندهمـــا فهي متقاربة إلى حد بعيد.

(١) ينظر رسائل كل من عبد الحميد الكاتب في الفصل الثاني، ورسائل ابن العميد في الفصل الثالث.

ثاني عشر: ولقد قدم عبد الحميد الكاتب وابن العميد من خلال ترسلهما خدمة كبيرة للأدب العربي وتاريخه، وذلك كما سأبينه من خلال النقاط الآتية:

أ- كان ترسلهما عبارة عن وثائق تاريخية لعصري الكاتبين، تخدم التاريخ السياسي والتاريخ الأدبي، حيث تظهر الدراسة لهذه الرسائل أحوال تلك الأمة في هذه الفترات الزمنية وما كان يعترضها من أمور، كما تبين أموراً مهمة في التاريخ الأدبي.

ب- كما تبين هذه الرسائل القيمة الفنية للترسل في ميزان الأدب العربي بشكل عام، والنثر الأدبي بشكل خاص، حيث أكسبت الترسل ميزات فنية لم تكن موجودة من قبل، ومن جهة أخرى، جعلت للترسل مكانته ودوره في النثر العربي، فأصبح فناً مستقلاً من فنون النثر الأدبي العربي.

ت- ثم إن مقدرة هذين الكاتبين على التفنن في ترسلهما قدم خدمة كبيرة للغة العربية، والأدب العربي، والدارسين والباحثين في الأدب العربي، وذلك من خلال فنية الترسل، ومن خلال المقدرة على توظيف مفردات اللغة العربية لخدمة هذا النوع من النثر العربي.

ث- وقد أثبت هذان الكاتبان أن الجذور غير العربية لا أثر لها على شخصية الأديب والكاتب في اللغة العربية، إذ استطاع هذا الأديب أن يتعمق في اللغة ويتعرف على مكنوناتها وذخائرها، فإن اللغة حينئذٍ ستكون سهلة طيعة على لسان الكاتب، وفي قلم الأديب، يسخرها كيفما يشاء لخدمة ما يريد، وهذا ما استطعنا أن نتعرف عليه من ترسل عبد الحميد وابن العميد.

ثالث عشر: وأني لآمل من هذه الدراسة أن تفيد الدارسين والمكتبة العربية من خلال ما عالجته من أمور، فالكتب التي عالجت موضوع الترسل عند كل من الكاتبين متوفرة، وإن كانت عند عبد الحميد الكاتب أكثر، لكنني لم أعثر على كتاب أو دراسة تجمع بين ترسل هذين العلمين من كتاب العربية، فلذلك أرى أن هذه الدراسة ستقدم جديداً للمكتبة العربية، وآمل في قادم الأيام، وبعد مشيئة الله تعالى، أن أتمكن من مواصلة دراسة فن الترسل عند مترسلين وكُتّاب فنيين آخرين، كالجاحظ وسهل بن هارون والصاحب ابن عباد وغيرهم، وذلك لأهمية هذا الموضوع على الساحة الأدبية، وفن الكتابة العربية، وقبل الختام أقول إن كانت هذه الدراسة وافية فذلك الفضل من الله عز وجل، وإن ظهر بعض التقصير في أحد جوانبها، فأرجو من الدارسين والباحثين الذين سيطلعون على هذه الرسالة، ويهمهم البحث في مثل هذا الموضوع، أن يعملوا على سداده وتكملته، وجزاهم الله خيراً، فالكمال لله وحده عز وجل.

الخلاصة:

تكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة، نظراً لطبيعة الموضوع، وطريقة العرض الذي نهجته، فالموضوع هو فن الترسل عند عبد الحميد وابن العميد، والترسل فن أدبي نثري قلّ من الدراسات التي تهتم به، خاصة إذا كان الحديث يتعرض لفن الترسّل عند علمين من أعلام الأدب، وكاتبين مشهورين من كُتّاب الترسّل، إذ أنني لم أعثر على دراسة تجمع بين ترسل عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رغم أن لهما حضوراً قوياً في ميدان الترسل، ورغم أن لكل منهما ميزاته الفنية التي جعلت منه إمام عصره، وشيخ مدرسة في الترسل، ولهذه المكانة قال الثعالبي عن مركزهما في الترسل: "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد، فلذلك حاولت في هذه الدراسة أن أبين المميزات الفنية لترسل كل منهما، وكيف وصل كل منهما إلى هذه المكانة الفنية المرموقة، وما الصفات التي اشتركا أو اختلفا فيها، وغير ذلك من الأمور، كل ذلك من خلال هذه الرسالة التي نهجت في عرضها على أربعة فصول.

تحدثت في **الفصل الأول** عن الترسّل لغة واصطلاحا، وعن مراحل الترسل التي مر بها حتى عصر ابن العميد، وفي **الفصل الثاني** كتبت عن حياة عبد الحميد الكاتب وشخصيته وثقافته،

مع بيان صفات ترسله ونماذج تطبيقية لترسله، وكذلك فعلت مع ابن العميد في الفصل الثالث، وفي الفصل الرابع تحدثت عن فن الترسل عند عبد الحميد وابن العميد، وبيان ما اتفقا أو اختلفا فيه في ميدان الترسل خاصة، وخلصت في هذا الفصل أيضاً إلى نتائج منها:

* منهم من يقول أن فن الترسل عربي النشأة والمولد، إذ قد سبق عبد الحميد الكاتب بكتابات فنية، ولكنها تأكدت على يد عبد الحميد الكاتب الذي أحدث لها نظماً وميزات لم يسبقه إليها أحد.

* رغم الجذور الفارسية لكل من عبد الحميد الكاتب وابن العميد، إلا أن كلاً منهما تعلم العربية وأتقنها وتفنن في مفرداتها، وأتقن أساليبها وبلاغتها، وكأنه لم يعد للجذور الأعجمية أثر أو تأثير على ترسلهما.

* كان كل من عبد الحميد الكاتب وابن العميد إمام مدرسة فنية، وشيخ طريقة الترسل في عصره، فعبد الحميد مال في ترسله إلى الإطناب والتوازن وتنويع المطلع والختام،

والتحميدات، أما ابن العميد فقد اهتم بالسجع والمحسنات البديعية على اختلافها مع تفاوت في درجة الاهتمام.

* لقد اعتبر الباحثون والأدباء عبر العصور الأدبية المختلفة أن الكتابة الفنية بدأت بعبد الحميد، لأنه استطاع أن يسيرها وفق نظام خاص في الشكل والمضمون، كما اعتبر الكثير من الباحثين والأدباء أن هذه الكتابة ختمت بابن العميد، لأن ابن العميد طبق أسلوباً معيناً في ترسله الذي اعتمد على السجع والمحسنات البديعية، حيث استخدمهما بطريقة فنية مناسبة.

* لقد أظهر الكاتبان التزاماً إسلامياً وخلقياً وأدبياً في ترسلهما، فلا فحش ولا بذاءة في الألفاظ، ولا تردي في المعاني، ولا انحطاط في الأفكار.

* المعجم اللغوي لكل من الكاتبين المترسلين متقارب إلى حد كبير، فالألفاظ سهلة في أغلبها لا سوقية مبتذلة ولا موغلة في الغرابة والصعوبة، وقد أحسنا اختيارها لتتناسب مع المعاني، وكذلك الصيغ النحوية في ترسلهما متقاربة.

وتبين لي من هذه الدراسة أهمية فن الترسل كفن أدبي راقٍ من فنون النثر في الأدب العربي، وأن هذا الفن له دور في رقي الذوق العربي والأدبي والسمو الفكري.

وآمل أن هذه الدراسة ستفيد الدارسين والباحثين والأدباء في الأدب العربي عامة، وفي مجال النثر خاصة، وأنها ستقدم جديداً للمكتبة العربية.

كما آمل أن أتمكن في قابل الأيام من إجراء دراسات فنية أخرى لفن الترسل عند أعلام الترسل الآخرين من رواد هذا المجال في تاريخ الأدب العربي، فالكتّاب الفنيون كثيرون يحتاجون إلى من يتقدم لدراسة ما أنتجته عقولهم، وما سطرته أقلامهم من فن أدبي خالد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

The Conclusion

This thesis has a special importance according to the topic and the style of portraying. Its topic is about the Art of letter writing – a narrative literary art which hasn't been explored yet – of two noticeable artists, Abed – El Hameed Alkatib and Ibn – Al – A'meed whose presence is clear in this field. Each one has his own art with its own characteristics. I haven't found any research comprising the two dimensions in this field, So I decided to tackle this issue.

In this issue, Al – Thaa'libi said: " letter writing began with Ibn – Al – A'meed and ended by Ibn – Al – A'meed. " Therefore, I decided to point out the characteristics of this art for each one of them, and show the way they followed to achieve this marvellous prestige in this art including similarities, differences and other things.

These issues are tackled in this thesis in four chapters, chapter one comprises the meaning of this art " Letter writing " linguistically, culturally and the stages up to reign of Ibn – Al – A'meed, chapter two about Abed – El – Hameed Al – kattib, life, character patterns and his culture, and the same is done in chapter three about Ibn – El – A'meed, in chapter four, I talked about similarities and differences of the two artists in the field of letter writing.

In the Fourth chapter 1 concluded the following:

✱ This art has its Arabic origin and Abed – El – Hameed Alkatib put its rules and laws, which weren't done by any one before.

* Despite the Persian roots of these two writers. They acquired the Arabic Language, its vocabulary, styles and figurative side as though there origin hadn't affected them.

* These two artists were the pioneers in this art, Abed – El- Hameed pointed out .... , parallel, varying the introduction, the conclusion and greetings. On the contrary, Ibn – Al – A'meed concentrated on rhyme and figurative language with difference in concentration.

* Researchers, through different ages, considered that Abed – El – Hameed started the art of letter writing because he managed to formulate its content and form according to specific pattern. They also considered that Ibn – El – A'meed ended this art through applying certain style including rhyme and figurative language, where he used them in an artistic way.

* Through their writing, they confined it to be Islamic, literary and ethical away from bad language, disgraceful meanings and worn ideas.

* Their linguistic manuscripts reflect similarities of both of them concerning writing. They use easy language but not slang or strange. Their expressions are chosen to fit the meaning.

From this study. It has become clear that this art is a splendid one the narration of the Arabic literature which affected the literary appreciation and the highness of thought.

I hope that this study will help researchers in the narrative literature and enrich the Arabic library. I, also, look forward to having other studies in this field for other artists who are very many. They have many creative and immortal literary works.

The End

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

١. الأثري، محمد بهجة، المدخل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة الجزيرة، بغداد.

٢. أرنولد، م. ت. هوتسما، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط ١، ١٩٩٨م.

٣. الإسكندري، أحمد (وزملاؤه)، المنتخب من أدب العرب، المطبعة الأميرية ببولاق، جزء ٢.

٤. الإسكندري، أحمد (وزميله)، الوسيط في تاريخ الأدب العربي وتاريخه، مطبعة المعارف.

٥. الأسمر، راجي، البلاغة العربية الواضحة، إشراف د. إميل يعقوب، المكتبة الثقافية، بيروت.

٦. الأشقر، عبد الكريم، نصوص مختارة من الأدب العباسي، دار الفكر، ط ٢.

٧. الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت، جزء ١.

٨. أمين، أحمد (وزملاؤه)، المجمل في تاريخ الأدب العربي، مكتبة الآداب.

٩. الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، ط ٢، جزء ١ / ٣.

١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزيه، صحيح البخاري، دار الفكر، ط ١، ١٩٩١م، ج ١، ص: ٧.

١١. البستاني، بطرس، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار صادر، بيروت، ط ٨، ١٩٦٢م.

١٢. بلبع، عبد الحكيم، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٣. بيومي، السباعي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بالمشرق، ط ٢، ١٩٥٨م.

١٤. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد العباس البغدادي، أخلاق الوزيرين، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية.

١٥. التونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٣م.

١٦. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري، لطائف اللطف، تحقيق: د. عمر الأسعد، دار المسيرة، بيروت.

١٧. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري، الإعجاز والإيجاز، مكتبة دار البيان، بغداد.

١٨. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثالث، دار الباز، ط ٩، ١٩١٧، جزء ٣.

١٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، جزء ٣.

٢٠. الجارم، علي (وزملاؤه) المفصل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة مصر، جزء ١ / ٢، وزارة المعارف العمومية.

٢١. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكُتّاب، حققه: مصطفى السقا (وزميلاه)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط ١.

٢٢. الحاوي، إيليا سليم، نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، دار الكتاب اللبناني، ط ٣.

٢٣. حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، المطبعة الفنية الحديثة، ط ١، ١٩٦٥م.

٢٤. حسن، حسين الحاج، أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٣م.

٢٥. حسين، طه (وزملاؤه)، التوجيه الأدبي، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢٦. حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي، دار العلـــم للملايـــين، بـــيروت، ط ٢، ١٩٧٦م، ج ٢.

٢٧. حســين طــه، مــن حديــث الشــعر والنــثر، دار المعــارف بمصر، ١٩٥٧م.

٢٨. الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د. يوسف شــكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.

٢٩. الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في أخبار مــن ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، جزء ٣.

٣٠. الحوفي، أحمد محمد، أدب السياســة في العصــر الأمــوي، دار نهضــة مصر، ط ٣.

٣١. أبو الخشب، إبراهيم علي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثــاني، دار الفكر العربي.

٣٢. خفاجي، محمد عبد المنعم (وزميله)، التفسير الإعلامي للأدب العــربي، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٨٠.

٣٣. خفاجي، محمد عبد المنعم، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتـــاب اللبنــاني، بيروت، ط ١، ١٩٧٣م.

٣٤. خفاجي، محمد عبـــد المنعـــم، أعـــلام الأدب في عصـــر بـــني أميـــة، رابطة الأدب الحديث، ط ١، ١٩٥٤م، ج ٢.

٣٥. خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر بني أمية، دار الكتـــاب اللبناني، ط ٢، ١٩٧٣م.

٣٦. خفاجي، محمد عبد المنعم، دراســات في الأدب الجــاهلي والإســلامي، دار الجيل، بيروت.

٣٧. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٤٨م، ج ٣ / ٤. تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، مجلد ٥.

٣٨. خليف، مي يوسف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٩. الداية، محمد رضوان، أعلام الأدب العباسي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٠م.

٤٠. الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ، ط ١، ١٩٩٩م.

٤١. الدقاق، عمر، ملامح النثر العباسي، دار الشرق العربي، بيروت.

٤٢. الدينوري، مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، مجلد ١.

٤٣. الرّازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي.

٤٤. الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط ٣، جزء ٤ / ٦.

٤٥. زكريا أبو الحسين، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ج ٢.

٤٦. زكي، أحمد كمال، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر.

٤٧. الزيات، أحمد حسين، تاريخ الأدب العربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٥.

٤٨. زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، جزء ٢.

٤٩. زيدان، جرجي، المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال.

٥٠. سعد، أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.

٥١. الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النـــثر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م.

٥٢. الشكعة، مصطفى، الأصول الأدبية في صبـــح الأعشـــى، دار الكتـــاب المصري، ط ٢، ١٩٩٣م.

٥٣. شلق، علي، نقـــاط التطـــور في الأدب العـــربي، دار القلـــم، بـــيروت، ط ١، ١٩٧٥م.

٥٤. شمس الدين، عبد الأميرز، الفكر التربوي عند ابـــن المقفـــع، الجـــاحظ، عبد الحميد الكاتب، الشركة العالمية للكتاب.

٥٥. الصابئ، أبو الحسن هلال بن المحسن، غرر البلاغة، تحقيق: د. أسعد ذبيان، دار الكلمة العربية، ط ١، ١٩٨٣م، جزء ١ — ٢.

٥٦. صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، ج ٢.

٥٧. صيام، زكريا، الأدب العربي في العصـــر الجـــاهلي وصـــدر الإســـلام، ط ٣، ١٩٩٠م.

٥٨. ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ٨.

٥٩. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر.

٦٠. ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف.

٦١. طبانة، بدوي، الصاحب بن عباد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٦٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضـــل إبراهيم، جزء ٤، دار المعارف.

٦٣. عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحـــي الكـــاتب، دار الشـــروق للنشـــر والتوزيع.

٦٤. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت.

٦٥. عبد العال، محمد يونس، في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط ١، ١٩٩٦م.

٦٦. عبود، مارون، أدب العرب، دار الثقافة.

٦٧. عتيق، عبد العزيز، علم البديع، ١٩٧٢م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

٦٨. عزام، عبد الوهاب (وزميله)، رسائل الصاحب بن عباد، دار الفكر العربي، ط ١.

٦٩. العزيزي، المنهل في تاريخ الأدب العربي / ٣، المطبعة التجارية، ط ١، ١٩٥٦م.

٧٠. عطا الله، رشيد يوسف، تاريخ الآداب العربية، تحقيق: د. علي نجيب عطوي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٥م، م ١.

٧١. العلاق، حسين صبيح، الشعراء والكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، مؤسسة الأعلمي ومكتبة التربية، بغداد، ط ١، ١٩٧٥م.

٧٢. العلي، فيصل حسين طحيمر، الإنشاء العربي الميسر، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، ط ٢، ١٩٩٤م.

٧٣. العلي، فيصل حسين طحيمر، البلاغة الميسرة، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٥م.

٧٤. علي، محمد كرد، أمراء البيان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، جزء ١ / ٢.

٧٥. غالب، حسين، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٧١م.

٧٦. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، مجلد ١، ١٩٩٥م.

٧٧. غريب، جورج، العصر العباسي، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٨م.

٧٨. الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، ط ١، ١٩٨٦م.

٧٩. الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية.

٨٠. فروخ، عمر، العرب في حضارتهم وثقافتهم، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت.

٨١. فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م، جزء ١، ط ٢، ١٩٦٩م.

٨٢. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٨م، جزء ١، ٢.

٨٣. القاضي، وداد، مختارات من النثر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٨٣م.

٨٤. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، ج ١، دار الكتب السلطانية، ج ١٠.

٨٥. القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق د. زكي مبارك، دار الجيل، ج ١ — ٤، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٢، ج ٣، جزء ١، ط ٤، ١٩٧٢م.

٨٦. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، جزء ٩.

٨٧. كرو، أبو القاسم محمد (وزميله)، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٦م.

٨٨. المتنبي، ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت.

٨٩. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بغداد، ج ٣.

٩٠. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت.

٩١. المصري، ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، م ١.
٩٢. المصري، جمال الدين بن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.
٩٣. مصطفى، إبراهيم، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، جزء ١، ط ٢، ١٩٧٢م.
٩٤. المقدسي، أنيس، الدول العربية وآدابها، المطبعة الاميركانية، بيروت، ط ٦.
٩٥. المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٧٩م.
٩٦. المقدسي، أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤م، ص: ٢٢٥ – ٢٢٦.
٩٧. مكي، الطاهر أحمد، مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ١٩٩٤م.
٩٨. منصور، سعيد، الفن الشعري في نثر عبد الحميد، فكر ونغم، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م.
٩٩. منصور، مناف، الأدب العربي قضايا ونصوص، ط ١، ١٩٧٥م.
١٠٠. مهنا، علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط ١، ١٩٨١م.
١٠١. ناعسة، حسني، الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧٨م.
١٠٢. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، الفهرست، شرح: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦م.
١٠٣. نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٤م.

١٠٤. الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، جزء ١.

١٠٥. الهواري، صلاح الدين، روائع من الأدب العربي.

١٠٦. اليازجي، كمال، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، دار الجيل، ط ١، ١٩٨٦م.

١٠٧. ، لجنة من الأساتذة، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار المعارف.

١٠٨. ، مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ط ١٠، ١٩٩١م.

الدوريات

١ بيللا، شارل، النثر العربي في بغداد، المورد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، مجلد ٨، عدد ٤.

٢ جبري، شفيق، النثر العربي في القرن الرابع للهجرة، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد ١١، جزء ٧ – ٨.

٣ جبري، شفيق، تطور النثر في العصر العباسي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٤٦، جزء ١.

٤ جبري، شفيق، تطور النثر في العصر العباسي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٤٥، جزء ٤.

٥ الحوفي، أحمد، النثر الفني عربي النشأة، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، مجلد ٤، عدد ٣.

٦ زياد، أبو طالب، أخلاق الوزيرين، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٤٢، جزء ٣.

٧ عياد، محمد كامل، رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى ولي العهد عبد الله، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، جزء ٤.

٨ المغربي، عبد القادر، تعريب الأساليب، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، المطبعة الأميرية ببولاق، جزء ١.

٩ المقداد، محمود، أيهما أسبق إلى الظهور الشعر أم النثر الفني، التراث العربي، دمشق، منشورات اتحاد الكُتّاب العرب، العدد: ٣٩ / ٤٠.

١٠ موسى، محمد خير شيخ، حركة التأليف في الكتابة والكتاب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٧٢، جزء ٣.

١١ نعمات، أحمد فؤاد، فن الكتابة في الأدب العربي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جزء ٣٧، ١٩٧٦م، المشرف: د. إبراهيم أنيس.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
المقدمة	٤
الفصل الأول	٨
الترسل لغةً واصطلاحاً	٨
الترسل لغةً	٩
الترسل اصطلاحاً	١١
الترسل نشأةً وتطوراً	١٣
مرحلة العصر الجاهلي	١٤
المرحلة النبوية	١٧
مرحلة الخلفاء الراشدين	٢٤
أبو بكر الصديق	٢٤
عمر بن الخطاب	٢٦
عثمان بن عفان	٣١
علي بن أبي طالب	٣٣
مرحلة العصر الأموي	٣٨
مرحلة العصر العباسي	٤٣
أنواع الرسائل	٤٨
١-الرسائل الديوانية (الرسمية)	٤٨
٢-الرسائل الإخوانية (الشخصية)	٥٠
٣-الرسائل الأدبية	٥٣

الفصـــل الثـــاني	٥٥
عبد الحميد بن يحيى الكاتب	٥٦
ترسل عبـد الحميـد الكـاتب	٦٦
خصائص أسلوب فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب	٧٣
ترسل عبد الحميد الكاتب في ميزان النقد	٧٨
نماذج من ترسله	٧٩
حول رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي العهد	٨٨
حول رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكُتّاب	١٠٤
رسالة عبد الحميد الكاتب في وصف الصيد	١١٠
حول رسالة عبد الحميد الكاتب في وصف الصيد	١١٥
رسالة لعبد الحميد الكاتب: تحميد في فتح	١١٧
الفصـــل الثـــالث	١٢١
ابن العميـــــد	١٢٢
الميزات العامة لترسل عصر ابن العميد	١٢٩
فن الترسل عند ابن العميد	١٣٢
ترسل ابن العميد في ميزان النقد	١٣٥
نماذج من ترسله وكتاباته وأشعاره	
أولاً: رسالة ابـن العميـد إلـى ابـن بلكـا	١٣٥
ثانياً: رسالة ابن العميد فـي شـهر رمضـان	١٤٣
ثالثاً: من ترسله إلى ابن أبي عبد الله الطبري	١٥٠
الرســـالة الأولى	١٥٠
الرســالة الثانيـــة	١٥٣
الرســالة الثالثـــة	١٥٥
الرســالة الرابعـــة	١٥٧
الرســالة الخامســة	١٦٠

رابعاً: من رسائله في التهنئة	١٦٤
الأمثال عند ابن العميد	١٦٥
من شعر ابن العميد	١٦٦
خلاصة القول في ترسل ابن العميد	١٧١
الفصل الرابع	١٧٢
التلازم بين الخط العربي وفن الكتابة وأثره على عبد الحميد وابن العميد	١٧٣
فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد	١٧٦
من نتائج هذه الدراسة	١٨٥
الخلاصة	١٩٤
المراجع	٢٠١
المحتوى	٢١٢